

بذل الذات

القمص
بیشوئی کامل

مارجر جیس سبورتینگ

القسم الأول المبادئ الأساسية لبذل الذات

الفصل الأول

من العدل أن نبذل ذاتنا لله

المقالة الأولى

الله مبدأ الأشياء كلها

بذل الذات لله يعنى تسليم جسدنا وروحنا إليه، والتخلي له عن كل قوانا ونزاعاتنا ومشاعرنا ورغباتنا ومخاوفنا وآمالنا ومخططات مستقبلنا، غير تاركين لفسنا سوى الاهتمام بمحبته.

بذل ذاتنا لله يعنى أن ننسى أنفسنا، ونضع في قلب يسوع كل شواغلنا واهتماماتنا ومشاكل حياتنا اليومية الكثيرة، ونكَل إلى عنايته كل مصالحنا مكلفينه بتدبير كل شيء وتدارك كل نقص.

بذل ذاتنا لله يعنى أن نعدل عن الاهتمام بأنفسنا ولا نفكر إلا بالله، وأن نقف ذواتنا للأعمال التي تؤول إلى مجده، وأن نبسط بحسب إمكاناتنا سلطان الحق والخير، ونتقانى في خدمة أخوتنا حباً بالله ونساعد ونعلم ونعزى، وخصوصاً أن نهدي الغير ونقودهم إلى الله.

بذل الذات يقوم بالخضوع الدائم للمشيئة الإلهية وسط كل الحوادث والتقلبات، والإذعان الساذج البنوي لمشيئات الآب السماوي، والاستسلام التام للتدابير التي ترتضيها العناية الإلهية.

طوبى لل نفس التي أسلمت ذاتها ليسوع بسذاجة، لأن يسوع بدوره يهب لها ذاته. إنه يستولي على النفس التي تحبه يأخذ بيده مصالحها ويريحها من الهموم التي تشغلها، ويحميها من كل أعدائها، ويقيها كل الأخطار ولا يطلب منها مقابل ذلك سوى أن تعطيه قلبها.

هكذا يكون العطاء المتبادل بين يسوع والنفس، عطاء كله محبة. ما أجمل هذا العطاء المتبادل، إنه حياة حب تجتذب النفوس الطاهرة والقلوب الكريمة.

ما أسعد وجوداً يكفر فيه الإنسان بذاته فيهبها كلها ليسوع ويترك له أن يتصرف بخليقته كما يشاء.

ما أشبه أن يشد أرك الإنسان المسيح في عمله، يرى نفسه وقد كلفه يسوع بالسهر على مصالحه، ويتفاوض معه في طرق انتزاع نفوس خالدة من براثن الجحيم.

ما ألهذا السلام وما أصفى السعادة التي يجدها المرء عندما يستطيع أن يغوص في كل أن في محيط الألوهية الذي لا حد له، فيحس فيه أنه بعيد كل البعد عن جميع الترهات التي تشغل نشاط البشر.

ما أحلى ذلك المصير الذي تؤول إليه النفوس الحساسة والقلوب المحبة عندما ترى أنها تعيش في ألفة يسوع الإلهية فتشاركه أفراحه وتقاسمه متاعها، وتتسيه بحنانها عقوق البشر.

يا يسوع! إنني أتوق أن أكون في عداد هذه النفوس السعيدة، أروم أن أعقد معك عهدًا أخويًا، فأعطيك قلبي لأمتلك قلبك ثم أنسى ذاتي معك وأرافتك إلى جلب النفوس إليك. إنه لحلم سماوي جميل.

هذا الحلم جميل. بوسع كل واحد أن يحوله إلى حقيقة عذبة. وحسبه أن يسير في طريق الحق، حسبه أن يرجع إلى الله في كل حين بمحبة.

إن الله هو مبدؤنا. فهو الذي خلقنا، وهو يبقينا على قيد الحياة ويشترك في كل أعمالنا. هو يعمل في كل وقت في قوانا وحواسنا وكل خلية من خلايا جسمنا. فلنعترف بمحبة بسامي سلطانه: إن في ذلك بذل الذات.

إن العمل للإلهي يسري في أفكارنا وعواطفنا، وأعمالنا كلها. هو يسند كل خليفة ويشترك في كل حركة من حركات الكائنات بأسرها. فلنستسلم بلا خوف إلى العناية الإلهية ولنتمثل بمحبة لإرادة الله السامية التي لا يسترح أحد أن يفلت منها. إن في ذلك أيضًا بذل الذات والقداسة.

حياتنا تجري في حضن الله. إنه حاضر في كل مكان بجوهره الإلهي حضورًا حقيقيًا كما في السماء فلنلقين ذواتنا بين ذراعيه لأن الكمال هو أن نتركه يحملنا. الحياة الكاملة أن نحيا على صدر الله كما يحيا الطفل على صدر أمه. لنلق عليه همومنا ولنكل إليه أمر تدبير حاجاتنا مكتفين بمحبته: تلك هي الحياة الروحية ومقدمة حياة المحبة الخالدة.

المقالة الثانية

الله غاية الأشياء كلها

ليس الله مبدؤ كل الأشياء فقط، بل هو أيضًا غاية كل المخلوقات عمومًا، وكل كائن على وجه التخصيص. إن لأقل حشرة كامنة تحت ورقة هدفًا في الوجود كما لحيوانات الغابة الضارية. ذرة الغبار المتطايرة في الهواء لها هدفها كالأجرام اللامحدودة التي تجوب الفضاء. أوضع البشر، والعبد المجهول النائم في قلب الصحراء. له غاية يسعى لتحقيقها أسوة بالملك الحاكم في مقدرات الناس.

كل ما هو مخلوق من عظمة واستحقاق يتوارى أمام الله ذي الجلال اللانهائي. وكل كائن، بما أنه من خلق الله، مدعو ليحقق مقاصد الله فيه: "أنا الألف والياء، البداية والنهاية. الأول والأخر يقول الرب"¹.

إن الكائن غير العاقل وغير الحر يسير بصورة حتمية نحو الهدف الذي حدده له الله. أما الإنسان فقد نال وحده من الله ذلك الامتياز الخطر، أن يبلغ غايته بملء اختياره وحرية. فإنه على مثال الله يعرف الخير والشكر، يعرف أن العقل أعطى له ليدرك الحقيقة وأن أرادته وهبت له ليتعلق بالخير الأسمى. فإذا امتثل لهذا الترتيب الإلهي، واستسلم لإرادة الله، بفعل تلقائي صادر عن القلب. حقق الغاية التي خلق لأجلها.

غاية الإنسان أن يبذل ذاته لله بحسب تدبيره تعالى: ذلك واجبه الأول والأخير الذي يحوى الواجبات كلها.

¹ رؤ 1:8، 17.

كل إنسان يبلغ سن الرشد يجد ذاته، في كل عمل من أعماله الحرة، أمام هذين الأمرين: مراعاة النظام الإلهي أو تشويش ه. وكل إنسان يختار لزاماً أحد هذين الموقفين، فقد قال يسوع المسيح: "من ليس معي فهو على".

مسكينه هي النفس التي ترفض طاعة الله! فإنها تحكم بذلك على ذاتهما بالاضطراب والحزن والشقاء. أذنا نرى في كل مكان نفوساً شقية وأسرًا مفككة ودولاً في فوضى. في كل مكان يسود الاضطراب لأن الناس يرفضون طاعة الله. لقد استقرت الثورة بصورة دائمة في المجتمع لأن الإنسان تمرد على النظام وعلى السلطة وحتى على الله. فكل مخالفة تحمل معها عقابها.

إن الله يبلغ دومًا الغاية التي رسمها: إنه يمسك بيده العالم وكل ما فيه، فلا تستطيع أية خليفة أن تقلت من سلطانه الأسمى، وهو لن يعطى مجده لأخر. "أنه يبلغ من غاية إلى غاية بالقوة، ويدبر كل شيء بالرفق² فتعاقب الممالك، وازدهارها وسقوطها والحوادث التي ملأت تاريخ العالم، والحروب، والانقلابات والاكتشافات: ذلك كله قد وجهه الله إلى غاية هو يعرفها.

كثيرون ظنوا أنهم يقررون مصير العالم، لكنهم كانوا أدوات غير واعية بين يدي العامل الإلهي. لا يتم على الأرض شيء إلا ويستخدمه الله لبلوغ غايته. فقد يحدث الشر أضرار كثيرة، وقد تقسد المجتمعات أو تنصد رف عن عبادة الله فتجذف على اسمه القدوس، وقد يرد الناس، في كبرياء جنونية، على الله فيقصونه عن قلبهم وعن عائلاتهم. وقد يسمح الله بأن تكون لهم مظاهر النجاح، وقد يدع كنيسة تضطهد وخدامه يعيرون، وقد يسمح للتجديف بأن يصل رافع الرأس وللذيلة بأن تجرر وقاحتها في كل مكان. لكن محبة الله هي الغالبة في النهاية.

يا يسوع! إنك غاييتي الأخيرة، وهدف وجودي، فإليك أسلم ذاتي لتقودها إلى بنابيك.

المقالة الثالثة

الله هو العلة المثالية لكل شيء

إن الله هو مبدأ الخلائق وغايتها، وهو أيضًا علتها المثالية لم يكنف بتعيين نقطة انطلاق الخليقة وخاتمة الرحلة التي تقوم بها على الأرض. بل رسم لها أيضًا الطريق التي يجب أن تسير فيها.

فهو إذ صدق لإنسان على صورته ومثاله واعدده ليعكس في ذاته خطوط رسمه الإلهي. فقد أراد أن يتكون مثالاً له في كماله.

إن الله يرى منذ الأزل كل الكائنات التي يستطيع خلقها والتي سيخلقها في الواقع، وكل منها مرتب في تدبيره بطبيعته الخاصة وبدرجة الجمال والكمال التي عليه أن يبلغها.

² حكمة 1:8.

في ه ذا التدبير الإلهي حددت الطريق التي ستسلكها كل خليفة على الأرض، وموعد ظهورها في العالم، والدور الذي ستقوم به ووقت زوالها. كل تفاصيل وجودها مسجلة بوضوح في ذلك التدبير، وحرية الكائنات العاقلة لا تعطل في شيء هذه الدقة الإلهية، فالماضي والمستقبل حاضران أمام الله.

وأنت أيضًا يا نفسي. قد ميزك الله منذ الأزل. لقد رأيك في جوهره، بين عدد لا يحصى من الكائنات، لا كجزء منه بل كصورة لكماله غير المحدود، لجماله الإلهي. ومنذ عيني الخطوط التي ستميزك عن كل خليفة، والجمال الذي ستختصين به. وهو في الوقت نفسه قد حدد بدقة غير متناهية الطريقة التي تبلغين بها هذه القداسة. ورسم السبيل الذي تسيرين فيه على الأرض، وعين المؤهلات والوسائل التي تكون في متناول يدك المساعداً التي ستقدم لك وأحوال الزمان والمكان الخارجية التي تعيشين فيها، والناس الذين تتصلين بهم وأصغر الحوادث المؤثرة في حياتك.

إنه سبق فعرف المصاعب التي تلاقينها في ممارسة الفضيلة في أعماق قلبك، وجهاداتك وسقطاتك وانتصاراتك، والصبر اللامتناهي الذي سيبيديه نحوك.

لقد بارك بفرح منذ الأزل إخلاص أردتكم وحماسة قلبك واستقامته. وسر بالمحبة التي ستخرج من قلبك كما تتدفق المياه الصافية من نبع عزيز. ومنذ فرح بالألفة التي تكون يوماً بينكما.

لقد كنت في فكر الله منذ الأزل، أنا الخليفة الصغيرة الحقيرة. فأحبنى إذ لم كن أستطيع بعد معرفته³. لقد خط لي الطريق وهو يمسكني بيدي حتى لا أحمده عن يميناً أو يساراً.

أيها السيد القدير! إنك تدبر خلائقك بإشفاق كثير⁴ وتسهر عليها بعناية أبوية. إنك تشفق أن يبتعد أبناؤك عنك فيهلكوا. فأنتعم على بأن احبك مدى الحياة.

المقال الرابعة

خلاصة الفصل الأول

الله مبدئي. فعلى عقلي أن يعترف له بسيادته المطلقة على والله غاييتي. فعلى إرادتي أن تبذل له ذاتها بلا تحفظ. الله مثالي، فيجب أن تكون حياتي كلها صورة عن هذا المثال الإلهي.

إنني تجاه الله في وضع خضوع مطلق كلي فلا يكفي أن أعبدته معفراً جبهتي بالتراب، كمبدع وحيد لك ل ما هو في الوجود، لا يكفي أن انزع إليه بكل طاقة نفسي كما أنزع إلى الغاية الوحيدة لوجودي. بل يجب أيضاً أن اتبعه خطوة خطوة، في كل لحظة من حياتي، وأن أستسلم لقيادته، وأن أتركه يتصرف بي كسيد بحسب مشيئته.

نعم، يا رب، إنك تريد أن أبذل لك ذاتي لا بتقديس نفسي فحسب، بل بطريقة هذا التقديس أيضاً. إنه ليس سيان عندي أن أتبع هذا الطريق أو ذاك لأبلغ السماء فقد رسمت لي الطريق بذاتك، منذ الأزل.

³ أرميا 3:37.

⁴ حكمة 18:12.

ل يس في حياتي حدث لم تسبق فتعرفه بحكمتك وترتبه بعنايتك. ليس لي ما أغيره ولا ما أضيفه، ولا ما أ حذفه ليس لي أن أتوق إلى مصير غير الذي أعطى لي. ليس لي أن أتحسر أو اشتكي. ليس لي أن أسألك عن أس باب تص رفك تجاهي، ولا أن أعرف لم خلقتني بهذه الطباع وبهذه المؤهلات، أو بذلك العجز وبهذه الأوهاء، بهذه الثورات الداخلية أو بهذه النزعات. لست ملزماً بأن تقسر لي لم أوجدتني على الأرض في هذا الزمان لا في زمان آخر، وفي هذا المكان المعين وهذا المحيط وهذه الظروف المؤاتية أو غير المؤاتية.

يا إلهي! سد واء جعلتني غنياً أو فقيراً، عالماً أو جاهلاً، شريف الأصل أو خامل النسب ومجهولاً ومحقرًا أو أعطيتني نعمًا وضياء منعتها عن غيري، وأحطت نفسي بحمايات لم تعطها لآخرين: فعن هذا كله، ليس لي أن أطلب منك حسابًا. في هذا كله تكمن مقاصدك الأزلية بشأن نفسي وعلى إذن أن أقدم ذاتي.

يا نفسي! كم كنت عائشة في الأوهام عندما كنت تضعين بذاتك مناهج القداسة، عندما كنت تحلمين، بمعزل عن مقاصد الله، بكمال عيشة وأعمال وأنوار وتعزيات وصلبان لم تكن لك. كم كنت تضلين عند اتباعك مسالك ضيقة فيما خط لك الله نفسه. منذ الأزل، جادة عريضة واسعة.

لا، لا تسألني المارة على الطريق الحقيقي الذي يفضي إلي الله لأنهم لن يعرفوا بم يجيبون، إنهم يعرفون مصيرهم ويجهلون مصيرك. فسيري غير هيابة، فالله معك، لا يطلب منك سوى الطاعة والخضوع لأرادته السامية.

هذا المصير الذي هياه الله منذ الأزل لكل نفس، قد عين لها في الزمان. حياة الإنسان تتابع كلوحات واسعة سجلت فأياها سلفاً كل الحوادث والأحوال. يقول الله: أعبد وأرض. والنفس البسيطة تجيب: إنني أَرْضى وأدب وأستسلم لك. أما النفس اللامبالية فتمر من غير أن تحفل بالكنز الذي تهمله والكرامة التي تستخف بها، والنفس المقاومة تلعن وتجدف. لكن عمل الله يستمر، حاملاً معه في كل برهة واجباً جديداً، ومقدساً بلا انقطاع النفس التي تستسلم له.

إنني أستسلم لك وأخضع لأرادتك يا إلهي، يا مبدأ كياني وغاية وجودي ومثال عملي.

مهمتي أن أتبعك خطوة خطوة كالولد الذي يمسك بيد أمه. أنا لا أريد أن أسبقك ولا أن أتخلف عنك. سأسير على خطك متمماً واجبات اللحظة الحاضرة قابلاً الصلبان التي تأتي تأتيها، ومستسلماً لأرادتك ومقاصدك الحاضرة والآتية.

أنا اعلم أن كل ما يأتي من يدك حسن، لأن عنايتك الإلهية قد سبقت فعرفت كل شيء ونظمته.

الفصل الثاني

من الحكمة أن نبذل ذاتنا لله

المقالة الأولى

أن الله يتهم بتقديس النفس المستسلمة إليه

ب ذل الذات لله هو أن نقدم له كياننا بمحبة مضطربة وأن ننسى ذاتنا فلا نهتم بها وأن نكل الله بتدبير كل شيء انه تسليم تام لله.

أذا عرف أن الحكمة البشرية تحتج على كلمة التسليم هذه فقد تروم أن تقيم بعض التحفظات، وأن تطلب ضمانات، وأن تضع على الله شروطاً. ألا يظهر أن عملية التقديس على هذا النحو تصير كصفقة تجارية بين الله والنفس كعقد ثنائي يحاول فيه الفريقان المتعاقدان تأمين مصالحهما كشخصية قبل كل شيء؟ لننبد هذه المفاهيم الحقيرة لأنها من وحي حكمة الجسد.

أن نستسد لم لله جسداً وروحاً، ونرتمي فيه كما يرتمي الطفل على عنق أمه، ونحبه، فنتولى له ذلك ونردده بلا انقطاع: ذلك هو الكمال، ذلك هو سر القديسين وطريق اجتذاب قلب الله.

إن يسوع لا يريد أن تشغل النفوس بشيء آخر غير محبته وإظهار هذه المحبة له. أترى ملك الملوك تتقصه القوة والحكمة والصلاح، حتى تخاف النفس على مستقبلها؟ أننا لو نظرنا إلى اهتمام بعض النفوس القلقة لظننا ذلك؟

أيها السيد! لقد صممت منذ الأزل أن تقدمني ولم تبدع الكون إلا لتخلصني.

لقد قال يسوع لإحدى القديسات: "إنني مستعد أن أتحمل عذابات آلامي كلها مراراً تساوى عدد النفوس الهالكة. ولكن واحس رتاه! أنها ترفض الخلاص المعروض أمامها". وأنت يا نفسي المستسلمة ليسوع بدافع المحبة، كيف تخافين؟ الأم، التي تسند خطوات ولدها الأولى هل تترك هذا الولد يقع في التراب؟ وأنت إذ تمدين يدك ليسوع أتخافين أن يتركك في نصف الطريق؟.

إن الله يريد تقديس النفوس. ولذا يترك المجتمع قائماً رغم الدود الذي ينخره، ويتغاضى عن المجدفين على اسمه القدوس والناكرين عنايته والمثيرين غضبه الإلهي.

ومن أجل تقديس النفوس يدبر الله الكون وينظم تتابع الفصول وينزل أمطاره على حقل الصديق كما على حقل الخاطيء.

الرب عظيم وجدير بكل تسبيح⁵ إنه في العالم كله، لم يخلق كائناً، ولا يسمح بأي حادث، أو بأي سوء، إن لم يكن ذلك أثلاً إلى خير النفوس.

⁵ مز 2:47.

فه يا يا قلبي! دع صغر النفس وتوكل على الله. أغمض عينيك واستسلم لذراعيه. لم يقل يسوع: "لا يستطيع أحد أن ينزع مني أولئك الذين أعطانيهم الآب"⁶ أحب إلهك، اصنع كل شيء بمحبة، تقبل كل شيء من يده، ثم تقدم غير هياب فتصل إلى القداسة.

المقالة الثانية

أن الله يضع حكمته وقدرته في

خدمة النفس المستسلمة له

إن الله يريد تقديسك، العلة يجهل ما يوافق نفسك؟ أتخسب نفسك قادرا على إرشاده بعلمك؟.

أيها الإنسان! دع عنك هذا الاهتمام. فأنت لا تعلم من أين أتيت وتجهل إلى أين تذهب.

هل كنت! حاضراً عندما رتبت الحكمة الإلهية الكون، ورسمت للكواكب سبيلها، وقالت لموج البحر: لن تعدو إلى ما أبعد؟ هل طلبت مشورتك عندما خلقت النفوس الخالدة بنفخة من فمها ورسمتها بصورتها؟ إن رسم صورة الله في النفس لعمل يفوق علم الإنسان وهو من اختصاص الله وحده فأخش أن تشوش عمله.

نفسك أية كمال وجمال. كل ما فأيتها من شعور وعقل وإرادة ونعمة وفضائل مرتب بطريقة مدهشة. ذرة غبار تستطيع أن تعرقل سير هذه الآلة العجيبة. فما بالك تتدخل بإرشاد من أبدعها بهذا الدقة؟ أنت أعمى وتريد أن تقود ذاتك! تراقب بقلق قيادة الله لنفسك وتعرض على الحركة التي يدفعك إليها والهدوء الذي يتركه لك. يا جاهل! أنت لم تر هذه النفس التي تريد سياستها فدع عنك هذا الاهتمام فالله لم يرسم لك سوى أمر واحد وسهل: أن تحبه، واحتفظ لنفسه بما هو صعب. فاقنع بنصيبك والله يتولى ما تبقى.

إن عملك يشمل العالم من أقصاه إلى أقصاه ويدخل المخلوقات كلها حتى اللب، حتى الجوهر. فهو الذي يخلقه ويحفظها ويحركها. هذا العمل الإلهي يملأ الكون: إنه سري وخفي، غير أن الإيمان وحده قادر على كشفه.

إن ما رسمه صلاح الله لتقديس النفوس وما أمرت به حكمته لإبلاغها هذا الهدف الأسمى، تحققه قدرته الإلهية.

أيها النفوس التقية: إن الله يعني بتقديسك وقدرته تفعل في هذه الآونة عينها وأنتن تخضعن لفعله القدير: كل ما يجري فيكن وخارجكن من الحوادث يغدو لكن أدوات للنقش والتجميل: الأفراح والأحزان، النجاح والفشل، التعزيات والضيقات، الآمال والمخاوف، في ذلك كله يتحول إلى أداة بين ذلك الصانع المبدع.

إنه ينتقى لذاته مساعديه في هذا العمل الإلهي. فإن احتاجت النفس إلى مرشد ليبلغها الكلمة المؤاتية، أرسل الله هذا الإنسان من أقاصي الأرض ومهد أمامه الجبال وهدأ أمواج البحر، وإن دعت الحاجة فإن الله

⁶ يو 10: 29.

ذاته ي نقله كما رفع حقوق قديماً ووضع به قرب جب الأسود. إن النفس المحتاجة إلى مثل هذه المساعدة لا تحرمها ولو اقتضى إرضائها قلب نظام الكون.

إن عمل الله في تقديس النفوس ذوات الإرادة الحسنة لا يعرف حدوداً، ولا تستطيع خليقة أن تمنعه أو توقفه، لأنه يسمو على الصعاب ويعلو على الحواجز. إن العنف يتلاشى أمام صبر نفس مستلمة لله، والحيلة ترتبك في شباكها أمام بساطة هذه النفس، والكذب يرتج عليه أمام براءتها الساذجة. وما كان يظن خراباً للنفس البسيطة يصبح لها خلاصاً. وما يحاك بكل دقة للنيل من فضيلتها على حين غرة يثبتها في الخير. أمامها تفتح الحواجز وتنخفض الجبال وتمتلئ الوديان وتتحول المهالوي إلى طريق واسعة ممهدة، فلا سبيل إلى إيذاء نفس مستلمة لله، ولا إلى إيقاع تلك التي تسير متوكئة على ذراع يسوع.

يا نفسي! ابذلي ذاتك لله، واثبتي في محبته، أنسى ذاتك فإن الله صالح وحكيم وقدير. ألقى على الرب همك وهو يعولك⁷.

المقالة الثالثة

عمل الله في النفس ملئ بالأسرار

ربى! إنني لك، وأسر بأن احسب ذاتي كولد صغير بين في ذراعيك. وأضع في قلبك الأبوي همومي كلها.

أريد أن أتقانى في التأمل بقدرتك الإلهية وفي ضعفي المتناهي. فهذه الفكرة تحررني من أنايتي ومن اهتماماتي، وتجعل في نفسي حرية مقدسة وعزة بنوية.

يا نفسي! إنك في عمل تقديسك لا تستطيعين شيئاً إلا بالله. فالنعمة التي هو صميم كيانك الفائق الطبيعة، ليست إلا عطية من الله، وهي تفوق إدراكك.

إن فعل النعمة خفي كالنبع الذي تصدر منه: النعمة تأتي وتذهب وأنت تجهلين أنها قد مرت بك. أنها تغلغل في ملكاتك. لكن عملها يبقى سرياً. فعل النعمة تارة يهدر كالسيل ويصب في النفس ليج نور ومحبة: "ومن نه ر ل ذاتك تسقيهم"⁸ فتصبح النفس مغمورة به فتصرخ مع القديس فرنسوا كزافييه: "حسبي يا سيد، حسبي! فما عدت قادرة على احتمال خيراتك". وطوراً تجرى النعمة في النفس كالماء في ساقية هادئة، فتسقي القوى وتلج الحواس وتروى الأفعال، فينمو كل شيء ويزدهر بندي مفعولها. وكالحقل الخصب تعطي النفس لله غلة وافرة.

وأد ياناً يكون فعل النعمة قاصفاً كدوي الأمواج في بحر مضطرب: فيروع قائد المئة أمام الصليب، ويجمد حراس المسيح فزعاً، وي طرح بولس أرضاً على طريق دمشق، ويخضع الجماهير الآتية لسماع وعظ بطرس الرسول.

⁷ مز 23:45.

⁸ مز 9:35.

وأد يائناً أخرى تكون نغمته لطيفة كالنسيم فتمر مداعبة النفوس وتلاطفها وترفعها وتحملها معها إلى أجواء عليا، فتحس النفس أنها في الرضى والسرور وقوة العزيمة، وتغدو وكأن حزن الله قد أصبح لها مقاماً عادياً ومضجاً لراحتها. ولكن هذه الرؤيا السعيدة لا تدوم إذ لا تلبث أن تتجهم السماء وتتلبد الغيوم ويتواري وجهه الله الضحك فتبقي النفس وحدها بلا نشاط ولا مرشد: فتثور الأهواء وتصدمها الحوادث ويضطهدها الناس. أيها السيد أين أنت؟ أترارك تترك السفينة الضعيفة تغرق؟- كلا. إنك قريب تسهر وتقوي الإيمان، تودد إلى رجاء، وتضرم المحبة، ولكن بطريقتك يا الله. يا لفضل الله! من يستطيع أن يكشف أسرارك، من يستطيع أن يبتدعك في سيرك الجبار أنك تطوف الكون وتدوس بقدميك الجبال، وتقطع الصحارى فتشعر العشب الصغيرة بمروك. إنك حينما تمر تحيي وتخفف وترفع. فمن ذا يكشفك لأعيننا وأنت تستعمل المخلوقات كحجاب، وتستتر وراء أخس المظاهر. كاستتارك وراء أرفعها. أيها الفعل الإلهي، من يستطيع الافتخار بالإنفاذ إلى سررك وبإدراكك وبحجزك في أشكال محسوسة أو بتنظيم سيرك، فأنت تارة نبع متدفق، وطوراً سيل سريع، أو نهر صاخب وبحر عميق.

يا نفسي، لا تحاولي أن تسيري أعماق السر الإلهي. فليس لك أن تعرفي فعل الله وتحليله. واجبك يقتصر على عديم معاكسة هذا الفعل الإلهي، وأن تقتحي عندما يطرق بابك، وأن تستقبله بمحبة مهما كان نوع التكرار الذي يظهر فيه. إن الله قادر على كل شيء وهو يقدر عليك فاستسلمي له، أحبي إلهك وباركي في كل وقت اسمه القدوس.

المقالة الرابعة

إن الله يصنع العجائب في النفس المستسلمة له

عندما تستسلم نفس الله بلا تحفظ، متخيلة عن قيادة ذاتها ومرتمية في أحضانه، يرى الله ذات ملتزماً بأن يتعهدا هو نفسه ومنذئذ تشرع قدرته في العمل لتبلغها الكمال.

كل خليفة طيعة بين يدي الله، فهو قادر أن يجعل من القلب القاسي قلباً ملائكياً. بدونه لا تنفع الكفاءات الطبيعية شيئاً، وبه تتحول النقائص إلى فضائل. بدونه ينفخ كعلم ويهلك، وبه يتبدد الجهل أمام المعرفة.

أن قطرة الندى وذرة الغبار والحشرة المخبأة تحت العشب تثير أمام العالم مشاكل لا سبيل إلى حلها. ملايين الميكروبات التي تعج بها قطرة الماء، تملأ عقله ذهولاً، كما تذهله ملايين العوالم التي تتحرك في رحاب السماوات. الأرض والبحر ممتلئان بالعجائب. والإنسان نفسه هو اعظم الأسرار: من يستطيع تفسير عمل حواسه وملكاته؟ وميول قلبه ونزعاته؟ من تراه سبر غور طبيعة النفس، تلك الروح المتصلة بالمادة؟

وكلما ارتقينا في سلم الكائنات كثرت العجائب واكتنفت الأسرار عقل الإنسان وتحدثه. وما عسانا نقول إذا ما تخطينا عتبة العام الفائق الطبيعية؟ وماذا نقول خصوصاً عندما يكشف أمامنا عالم الأرواح محاسنه؟

عجب الله في قديسيه! انه يعمل في كل نفس تنقاد له وكأنها وحيدة في العالم، ويستعمل في تجميلها قدرته اللامتناهية، وينتقي لها أجمل الحل.

كل نفس عالم جديد من العجائب: فإن الله لا يصنع نسخاً لأعماله، وليس بين تحفه واحدة لا تختلف عن الأخرى بل كل "نجم يمتاز عن نجم آخر بالمجد"⁹. والله يحب أن يكثر عجائبه، فهو يشبعها بسخاء في عالم النفوس حيث لا يظهر شيء فوق القيام في الفن أو في الجمال. ولم يمسك الله يده في توزيع نعمته؟ أليس هو الله القدير؟ أو ليست النفوس المستقيمة بنات له يحبهن محبة الحنان؟

يا نفسي! إنك لتجهلين الطريقة الرائعة التي بها يدرجك الله في الكمال. أنت لا ترين في وجودك إلا متابعة رتيباً لأعمال لا طائل تحتها وتضحيات ومشاكل تافهة. فهذه الطريقة يصور الله فيك صورته الكريمة. تميلين إلى الصلابة الكبيرة، وإلى أعمال البطولة وتسعين لتبذلي حياتك في سبيل إرضاء الله، أما هو فلا يرتضى هذه الطريقة. إنه لا يريد أن تتقدسي الآن، بالأمانة أو باضطهاد الأشرار لك، بل بالعديد من أعمال الحياة اليومية التي تعينها لك الطاعة. فعندما تهملين شيئاً من فرائضك المقدسة إلى واجباً يسيراً من واجبات حالتك الحاضرة، قد يكون الله مهتماً بإعطائك مسحة من جمال خاص، فعدم انصياعك يخالف عمله هذا.

تظنين أنك تساعدينه عندما تستنبطين طرائق جديدة للتقديس فتتقنين في سير القديسين وتقرئين الكتب الروحية بنهم. ومع ذلك فليس هذا ما يقدره، بل بذل ذاتك في كل أن بمحبة كريمة.

يا نفسي! لا تبحنني عن القداسة بعيداً عنك فهي بك من كل جانب الخلائق كلها تأتيك بها، حوادث الحياة جميعاً ملأى بها. أن ما يبتغيه الله منك يبلغ إليك في كل لحظة بواجباتك اليومية، وبمعزل عن هذا الواجب اليومي ليس لك قداسة ولا سعادة. فأقبلي إرادة الله مهما كانت الظواهر التي تسير بها، تقبليها فخورة وافتدي لها باب قلبك على مصراعيه لأنها رسول الله إليك. قد تكون حاشية هذا الرسول حقيرة في أعين الناس، فلا تأبهى بذلك، فإن الله هو الذي يعبر. ما يأتيك به هذا الرسول قد يظهر لك قليل الأهمية، ولعله معاكس لتفكيرك أو مناقض. فلا تكثرني لذلك، أن هذا الآتي باسم الرب هو رسول الله، ابن داود. فاحمديه، وافرشي ثيابك أمامه اعبديه واهتقي مع القلوب البسيطة المستقيمة: "هوشعنا لابن داود، مبارك الآتي باسم الرب"¹⁰.

المقالة الخامسة

إن كلمة الله وحده هو مثال قداسة النفس

إن كلمة الله هو المثال الذي يجب على الخلائق كلها أن تبلغ كمالها بالاحتذاء به، كل نفس تحيا منذ الأزل في هذا العقل الإلهي، بجمالهما الخاص وسمتها الشخصية.

غير أن هذا المثال يسمو طبيعتنا البشرية سموً لا حد له، لذلك جعله الله مناسباً لضعفنا فتجسد ابن الله وصار باكورة الخلائق كلها. ونحن قد سبق لله فحدد أن نكون مشابهين لصورة ابن الله.

فالإله المتجسد، يسوع المسيح، هو المثال الإلهي المتأنس الذي يجب أن نقدر نواتنا وفقاً لصورته.

⁹ 1 كو 41:15.

¹⁰ متى 29:21.

إن يسوع كرسام ماهر، عنده كل لون وكل ريشة. وبما أنه سيد الأزمان، فهو يسد تخدم الزمن كما يشاء، فيطيل السنين، إن مست الحاجة، ليتم عمله. وهذا العمل هو وحده يعرفه، وهو وحده يستطيع أن ينفذه، وهو لا محالة متممه، ما لم يعطل الإنسان فعله.

ترين، يا نفسي، إن من الحكمة أن تستسلمي لسيدك. فماذا تعرفين عن التصميم الإلهي؟ ماذا ينفك أن تفحصي العمل الإلهي بفضول وأن تحلليه وتبدي فيه حكمك وخصوصاً أن تشجبيه؟ ألا فاقليه بحب ودعي الله يكفيك كما يشاء.

وماذا نتفعا معرفة أعمال الله إن لم تقدنا إلى محبه؟ فالنفس لا تتقدم في الكمال بفعل العقل وحده وإنما بفعل الإرادة والقلب أيضاً. لو أتيت لي أن أتأمل في السماء كل تحف الفنان الإلهي، ولو عرفت بالتفصيل ما خفي من العجائب في سيرة كل قديس، ولو ميزت فيهم فعل الروح القدس العجيب فماذا نتفعا هذه المعرفة إن لم أقبل أن الصدور التي طبعها في الفنان الإلهي؟ إن الأرض لا ينقصها العلم، بمقدار ما تنقصها المحبة والطاعة والاستسلام للعمل الإلهي.

كفي يا نفسي عن القلق بشأن تقديسك. كفي عن البحث بتحرق عن وسائل تقدمك في الفضيلة. لقد هيأها الله منذ الأزل وهو يقدمها لك الآن في كل لحظة من أيامك. تلك هي القداسة في اللحظة الحاضرة: ذلك هو بذل ذاتك المحدد في كل فعل وفي كل ألم من آلامك اليومية. وأما الباقي فلا يخصك ولا يمكن إلا أن يضر بك.

أه! ما أقل تقدير بساطة النفس التي تستسلم هكذا لله أيتها البساطة أنك تظهرين كجهل وغباوة. ولكنك في الحقيقة مهارة وحكمة إلهية. فسيرى أيتها النفس البسيطة سيرى ولا تقفي ابداً، فمعك دليل أمين.

بوسع كل النفوس أن تصل إلى قداسة سامية إذا سلكت هذه الطريق. وإذا كان القديسون علي الأرض فليس الذنب فيه على الله بل على النفوس عينها.

المقالة السادسة

يسوع وحده يعلم المقام الذي تحتله

النفس في جسده السري

يا يسوع! أنت مركز الكون. كل شيء يدور في فلكك، كل شيء يتجه إليك. أنت مصدر كل حقيقة، ومنبع كل محبة ومثال كل جمال.

أيها الإله المتجسد! إنك تجمع في ذاتك الخالق والمولود، المحدود ومن لا حد له، أيها المخلص، إنك مبدع عالم النعمة الذي يصل بين نظام الطبيعة ونظام المجد.

فيك تجد كل العلوم وحدتها، وكل الفضائل مثالها، وكل الفنون كمالها. فيك تفسير الوقائع الهامة في تاريخ الشعوب وحدك توضح غوامض تتابع الممالك، والانقلابات والثورات والحروب. أنت وحدك تستطيع حل المشاكل التي تقلق قلب الإنسان. بك يصبح للألم معنى وللرجاء أساس ولتوقنا إلى السعادة غاية.

فأنت يا يسوع أنت موحد القلوب! إنك تؤلف مع كل النفوس البارة جسداً سرياً واحداً أنت رأسه وأنا أحد أعضائه.

لقد اختراني "كلمة الله" منذ الأزل لأكون عضواً في هذا الجسد السري رأى وأراد المقام المعين الذي أشد غله والعمل الذي أتممه فيه. انه ميز الأمراض التي ستعترني كياني الروحي وما قد يلحق به من الأوهان، ووصف الأدوية الخاصة التي سيستعملها للتغلب على هذه العلة.

لم يفلت من عنايته الإلهية أمر واحد مما يخصني. وما صنعه لأجلي، يصنعه أيضاً لأجل كل من المؤمنين لأنهم جميعاً أعضاء في جسده. إن الرأس الإلهي يعتني بكل واحد كما لو كان وحيداً في العالم. يعين لكل واحد مكانه والمهمة التي يقوم بها، ويساعد ويرتب ويتدارك ويشفي بحسب حاجة كل واحد.

فما أحكم أن يتحرك الرأس الإلهي ليعمل على هواه، وان يلزم المرء وحده ويتمم واجباته بأمانة ويخضع لفعل يسوع ويتقبل نعمه!

واسفاه كم حاولت أن أخرج من نطاق هذا الفعل الإلهي، وأن أعين لنفسي المهمة التي أقوم بها وأن ارسم حركاتي، وأنتقي وظائفي، فأتعدى هكذا على قائدي الإلهي.

يا نفسي! استسلمي من الآن فصاعداً ليسوع، وتخلي عن إرادتك. إنك عمياء ولا تعرفين حتى المقام الصغير الذي تشغلينه في جسد المسيح. فإذا تصرفت بحسب رغبتك وتبعته هواك تعاكسين فعل يسوع.

يا يسوع ابعده عنى هذا الشقاء. إن قلبي يطلبك بلا انقطاع يروم أن يفنى فيك، وإن يحيا تلك الحياة المسننترة (مع المسيح) في الله. كما تغرز عشبه الحقل المتواضعة جذورها في الأرض كذلك أنا انبت جذوري في قلبك الأقدس أيها المعلم الصالح وكما تتعلق النحلة الصغيرة بالزهرة، هكذا أنا أتعلق بك يا زهرة يسي الإلهية إنني أغوص في كأسك وارتوى منه طهراً ومحبة. الست ناصعاً كالزئبق وأحمر كالورد... ألا تقطر شفتاك عسلاً صافياً؟

ما أجمل هذه الحياة التي سأحياها بيسوع! انه يأخذ على عاتقه أن يقدرني وأنا أعاهده بأن أحبه. أيها الأمهات ذراء، حولي عيني وقلبي عن كل مغريات الأرض. احمليني بين ذراعيك يا مركبة إسرائيل الإلهية. فعندها أشعر بأننا ندخل في أجواء أرفع، إلى عالم كله نور وصفاء.

المقالة السابعة

إن الروح القدس ينوع فعله كما يشاء في النفوس المستسلمة له

بذل الله ذاته للنفس وبذل النفس ذاتها لله: ذلك هو الكمال. وهذا البذل يتم بواسطة يسوع. فغاية حياتنا على هذه الأرض أن نولد بيسوع، وأن نتقوى فيه، وأن نبلغ فيه كمال نمونا الروحي.

ولكن، كيف يتم هذا النمو؟- أننا نولد وننمو في يسوع بالنعمة، وهذه يفيضها الروح القدس في نفوسنا. إن جسد يسوع السري، أي الكنيسة يشبه شجرة، والماء الذي ينميها هو النعمة.

هذه الشجرة الضعيفة التي غرست على الجبل في الأرض التي سقاها يسوع بدمه، قد نمت وتفرعت. لقد تأصلت في الأرض الوثنية، طيلة ثلاثة قرون كلها اضطهاد ومدت جذورا عميقة، ولما هدأت ريح العاصفة بسطت أمام عيون العالم غصونها القوية المثقلة الأوراق والأزهار والثمار.

إن يسوع هو جذع هذه الشجرة العظيمة التي تظل جميع شعوب الأرض وكل مؤمن هو أحد أغصانها. والله أخذ على عاتقه أن يحملها بالثمار: "أبي هو الكرام"¹¹. هو يسهر على جمالها وخصبها ويشذبها عند الأوان، ويقطف في الأوان المناسب الثمار الناضجة.

أما النمو فهو عمل الروح القدس الذي هو محبة: وهذه المحبة الإلهية هي حياة الله نفسها، هي طبيعته: الله محبة¹².

هذه المدبة قد انحدرت من الله إلى الخليقة العاقلة، فأفاضها الروح القدس، بلا حساب، في المسيح جذع شجرة الكنيسة، وهو يتابع عمله فيغذى بتلك العصارة عينهما كل الفروع التي ينميتها حتى آخر الأزمان. هذه الحياة الإلهية، الواحدة في حد ذاتها، متنوعة إلى ما لا حد له في مفاعيلها. فمن خواصها أنها لا تعطي ثمرتين بطعم واحد وعطر واحدة بل تتوع عملها إلى ملا نهاية له.

إن النفوس التي قدسها الروح القدس، منذ بدء الأزمنة، كلها جميلة في نوعها. بعضها يتميز بطهارته الملائكية ونقاوته البتولية. وبعضها الآخر يتميز بتشفه. وبعض هذه النفوس قضى حياته في مناجاة قلبية هادئة مع يسوع، وغيرها طافت الأرض والبحار سعياً وراء النفوس، أمثال بولس الرسول. البعض ذابوا بمحبة يسوع المصلوب وغيرهم أكلتهم غيرتهم على مجد الله.

كل عجائب النعمة هذه المتنوعة يفعلها روح الله الواحد. وفعل الروح هذا يتم برفق وهدوء. فتصعد الحياة الإلهية باستمرار وتسرى بسكون من الجذور إلى الجذع ومن الجذع إلى الأغصان وتعود من الأغصان إلى الجذور، ولا تقف إلا أمام الحواجز التي توضع لها. وفي بعض مراحل الحياة، يقوى جريها: فيكون حينئذ ربيع الحياة الروحية وصيفها، وفي بعضها الآخر تظهر وكأنها قد جفت، فتختفي عذوبة النعمة وتقر المشاعر الحلوة وتخد الانطلاقات النشيطة: هذا هو الخريف الحزين والشتاء الطويل. هذا وقت التجربة الذي تجمع فيه النفس في داخلها، في الإرادة، كل قواها الحيوية فتنتقيها وتضاعفها وتتهيأ للانطلاق في حياة جديدة أشد نشاطاً وأكثر سمواً. طوبى للنفوس الطيبة التي بذلت ذاتها لله، إنها تفهم أن مهمتها تنحصر في إفساح المجال لروح المحبة يعمل فيها!

المقالة الثامنة

كل شيء يساعد علي تقدم النفس البسيطة

بإرشاد الروح القدس

يا روح الله القدوس! انك تمسك بيدي لتقودني رأساً إلى الهي. فأريد أن أكون طيعاً وأن أنسى ذاتي

¹¹ يو 1:15.

¹² يو 8:4.

واستسلم لإرشادك، فأنا أرى في هذا أسمى درجات الحكمة.

إن المسافر الذي يجهل خريطة البلاد التي يجول فيها، لا يركن إلى معارفه الخاصة بل يستصحب دليلاً أميناً. وأنا، ماذا أعرف عن بلاد القداسة؟ كل شيء فيها غريب عني، السكان والشرائع والعادات وطرائق الحياة، حتى اللغة الدارجة فيها. فما هي الوسيلة حتى لا أضل عن الطريق؟

ثم إن لي أعداء يهيمهم تضليلي، وهم كثيرون وماكرون وبعضهم قد تسلل إلى صميم داخلي فصار جزءاً مني. يتحالفون كلهم علي، ولا يتركون لي راحة ما لم يروني قد وقعت في الهاوية فكيف أنجو من هذه الفخاخ الكثيرة؟ ليت الطريق واسعة وممهدة! لكنها ليست إلا مسلكاً ضعيفاً يضيع أحياناً في جبال عسرة المسلك، وأحياناً يغور في مستنقعات موحلة؛ ومع ذلك لا بد من السير الدائم، فالتراجع يعني الهلاك المحقق.

ما أكبر حاجتي إلى ألا أركن إلى ذاتي بل أن أتعلق بدليلي. هذا الدليل المرشد هو الروح القدس، المعزي في الضعف والأحزان، العاضد في مصاعب الطريق، والمنير في الظلام.

انه يجعل من تقديس النفوس شغله الوحيد. إن عنايته تسوس العالم تتصرف بالتيجان، وتعطى السلطة وتزيلها وذلك كله يتم بحسب مشيئته ولأجل خير النفوس. كثيراً ما نسائل ذواتنا، لم هذه الثورات والحروب والأوبئة والكوارث الاجتماعية الكبرى؟ لم نضطهد وتذل البلدان الضعيفة، وينتصر العنف؟ لم هذه الكوارث العامة، وأحزان العائلات، والمجازر البشرية، ودموع الأمهات؟

ما أقصر مدى نظر العقل البشرى؟ هناك نخبة من النفوس، وقد تكون كثيرة. تنقيها التجارب وتقدها. هنالك نفوس لن تخلص أبداً لولا هذه التجارب.

فيا حكماء هذا الدهر وعظماءه! أنتم تظنون أنفسكم سادة محكمين في مقادير هذا العالم، تفرضون عليه السلم أو الحرب لكن الله لا يأبه لقدرتكم، فهي بنت يوم واحد.

ليس مرشدي متفانياً في خدمة نفسي ومصمماً على تقديسها فقط، بل انه يملك أيضاً كل الوسائل لتنميط ذلك ويختص بذاته وحده انتقاءها. فبهديه تصبح كل الطرق حسنة وتقود إلى الغاية. انه يسر بترك النفس جاهلة مأربه، فيقودها بين المهوي ويصعداها الجبال الوعرة.

بيد أن النفس التي أسلمت له ذاتها لا تفقد أبداً شجاعتها لقد تعلمت أن تنسى ذاتها وأن تتكل على معلمها. فتتقشع الظلمات بعد قليل ويعود الهواء، ويسير الدليل الإلهي من جديد إلى جانبها: لقد أراد أن يعلمها كيف تبذل ذاتها بلا تحفظ، له وحده أن يعني خصوصاً بتقديسها.

لنسر معا أيها الروح القدس. إنني أستسلم لك. لن أخاف ولن أتردد من بعد، بل أرمي ذاتي بلا تحفظ في حضن عنايتك فأهدني وقدسني، أما مهمتي فأنا أمحي، أن أختفي.

الفصل الثالث

من السهل أن نبذل ذاتنا لله

المقالة الأولى

تخطئ النفس إذ تبالغ في تصور

مصاعب الحياة الروحية

إن الله هو السيد المطلق على كل شيء. هو مبدأ كيانى وغاية وجودى، والمثال الإلهى لحياتى، وله على سلطان مطلق وشامل.

أننى لأجزع أمام هذا الواجب الخطير: أن أكون بكاملى لله. لا أستطيع أن أقصى عنه أى فعل ولا أية برهة، من دون أن أكون مختلساً.

كيف يمكن أن توقف له حياة بكاملها، مليئة بألوف الأعمال اليومية؟ فالعقل يولد أفكاراً لا حصر لها، والقلب يولد عواطف لا عد لها، فكيف يمكن التسلط على كل هذا العالم الداخلى؟

إن الأهل والعذيفة أو غير المروضة، تواصل عملها بلا انقطاع. والحواس تتحمل بصعوبة نير الإرادة. والمذيلة تظن نفسها سيدة البيت فتقلب النظام الداخلى، العقل تخدعه الحواس وتغويه ظواهر الحقيقة، والإرادة نفسها ضعيفة ترتبط بالعدو بعلائق سرية.

وكيف يمكن أن توقف لله حياة بكاملها عندما تتكاثر العقبات الخارجية حول النفس؟ كثيرون هم أعداء الله وأعداء التقوى، واللامبالون الجبناء أكثر أيضاً: إن الحياء البشرى هو سيد العالم وقد حولت عن الله ابتسامة أو سخرية أو كلمة قارصة نفوساً أكثر من التي حولها الشيطان نفسه.

وفضلاً عن ذلك، كيف يمكن أن يشعر المرء بأنه مسلح ضد أغراء العالم الحالى وضد مغريات الشر ولأمم ثلة السيئة والمبادئ المفسدة؟ أه! ما أصدق ما قيل: "إن جميع الذين يريدون أن يحيوا بالتقوى فى المسيح يسوع يضطهدون"¹³.

ولأن حياة الله هذه لا تدوم إلا بعض الوقت لهان الأمر، لكنها يجب أن تدعم حتى النفس الأخير، بلا هواده ولا استرخاء ولا تخفيف، لأن كل شيء هو لله ويجب أن يكون له.

كيف يمكن تحمل وصراع دائم مثل هذا، ضد ذاتنا وضد العوائق الخارجية وضد الأعداء على اختلاف أنواعهم؟ إن النفس تتعب آخر الأمر، والقلب يمل، والإرادة تضعف والعادة الرتيبة تحل محل الحرارة.

وداعاً ما أيتها القداسة فإنك لصعبة جداً! انه لصعب قاس، أيها السيد، الكلام الذى يدعونى إلى مثل هذه الحياة، فمن يستطيع سماعه؟

¹³ 2 تيمو 3:12.

قائمة صورة الحياة هذه، فهل تريدان يا نفسي أنت أيضاً أن تذهبي ولا تعودى تتبعين المخلص الذي يدعوك إلى اتباعه؟

يا يسوع! إلى من أذهب؟ أليست كلمات الحياة الأبدية عندك؟ لقد قلت: أن نيري هين وحلمي خفيف¹⁴.
"ف تعالوا إلى يا جميع المتعبين وثقيلي الأحمال وأنا أريحكم"¹⁵ إذن ليس اتباعك صعباً جداً. أنا إنما أخذع عندما تصور لي القداسة كشيء مستحيل على ضعفي.

لقد أعطيت خلائتك كلها ما هو ضروري لها وما هو كمالى ولذا لا ينقصها شيء مما هو ضروري لبلوغ غايتها فهل أنا وحدي قليل الحظ حتى إنني لا املك التقديس غزيرة؟ إنني أرى أشد الأشياء لزوماً للوجود متوفرة لدى الجميع. فما من أحد تعوزه الماء والهواء والأرض. وحياتي الروحية، التي هي في عينيك أثمن بكثير من العيش المادي، هل تعوزنا المقومات الضرورية؟ لا أستطيع أن أتصور ذلك.

فيا يسوع! لا أريد أن أستصعب الكمال هذا، بل أريد أن أدنو إليك وأجلب معي نفوساً كثيرة. فعلمنا يا يسوع ألا نرحم طريقنا بعقبات خيالية.

أرنا يا رب الطريق الموصلة إليك، وأمسك بيدنا. أننا لن نتركك، وسنمضي معك حتى قمة الجبل. وهناك نستريح فيك يا يسوع، ونفرح مع جوقات من نفوس كريمة سبقتنا.

المقالة الثانية

يكفي كل يوم همه

إن بذل الذات ينحصر في واجب اللحظة الحاضرة. إن تقديس حياة بكاملها يعني تكريس اللحظة الحاضرة لله. فالماضي قد فات، والمستقبل لم يأت بعد، والحاضر وحده واقع وهو يحمل معه واجباً.

ما أبعد عن المنطق أن يرهق المرء فكره بتصور عديد الأفعال التي يرفعها لله والتضحيات تجدد بلا انقطاع والمصاعب الكثيرة الواجب التغلب عليها. ذلك كله نظرة تجريدية للقداسة من خلال زجاج المخيلة المكبر. أما الواقع فهو فعل فرد يقدم لله، وواجب يتم، وصليب واحد يحمل، وحزن يحتمل، وأحياناً هي استراحة تؤخذ تحت نظر الله.

إن حصر القداسة في هذا الواجب الحاضر الوحيد فقط يعنى تسهيلها ومجاراة مقاصد الله الذي لم يشأ أن ينقل عانتنا بحمل لا يمكن رفعه. يقول لنا الرب: عيشوا يوماً فيوماً، لا تهتموا للغد، فالغد يهتم بذاته، "يكفي كل يوم همه"¹⁶.

أذله ليدخل نفسه كثيراً ويجعل حياته قاسية من يكسب بواسطة المخيلة، كل الحجارة المبعثرة على الطريق الواحد قطعها، ويركعها جبلاً تمنع المرور، ثم يقول بحزن، وقد عقد يديه: "ما الفائدة من بدء المسير،

¹⁴ مت 30:11.

¹⁵ مت 38:11.

¹⁶ مت 34:6.

فلن أستطيع التغلب على مثل هذه العقبات. أما المسافر الحكيم فيعرف أنه سيصادف حجارة طول الطريق، لكنه يعرف أيضاً أن قليلاً من الجهد يمكنه من المرور من غير أن يصطدم بواحدة منها.

أن المذيلة تؤدي للنفوس خدمات سيئة: فأنها تسلبها نصف السعادة التي تحق لها، وتسمم البقية. هذه المذيلة تذكر النفس بالآلام الماضي وتحببها فيها فتخدعها وتضاعف مرارتها. كذلك المستقبل الذي لا تملكه النفوس بعد، يبعث فيها مخاوف خيالية وأمالاً لا تحقق وتكهنات بعيدة عن الصواب.

ألم يقل يسوع بحق "كونوا كالأطفال"¹⁷؟ فإن الطفل لا يفكر بالماضي وهو أقل تفكيراً بالمستقبل، حسبه أنه بقرب أمه، يمرح أمام عينيها، ويعرف جيداً أنها تعنى به.

يا نفسي، عودي طفلة. دعي كل اهتمام بالماضي وكل خوف أو أمل قلق في المستقبل، أبقى بقرب الله في الحاضر، فتصبحي سعيدة وهانئة، وتصرفي كل قوة أرادتك وكل انتباه فكري إلى واجبك الحاضر.

اللحظة الحاضرة وحدها جديرة باهتمامك فهي تحوي كنوزاً ثمينة. بوسعك في كل لحظة أن تكنزي لك كنوزاً للسماء، لأن كل لحظة تحوي الله.

ما أشد دلدل كثر النفوس! فأنها تطلب القداسة خارجاً عن ذاتها، تجول في الكون وتغوص في الماضي وتتفحص المستقبل، بينما الكمال بقربها، في اللحظة الحاضرة، بما فيه من خير وغنى. بقربها بحر من القداسة تستطيع الغوص فيه دائماً.

المقالة الثالثة

على النفس المستسلمة لله أن تتجنب الهموم الباطلة

إن الله لا يظلم من النفس سوى تتميم الواجب الحاضر وينهاها عن كل فكرة قلقة تتعلق بالماضي وعن كل اهتمام بالمستقبل. وهكذا ينحصر اهتمام النفس في التعرف على إرادة الله كلما بدت وفي التقيد بتلك الإرادة.

إن الله يأخذ بيدي، ويسير بجانبني، فليس على سوى أن أواكبه، من غير ما تطلع إلى الوراء، ولا نظر إلى المستقبل بعين قلقة، فلا أسير أسرع ولا أبطأ من مرشدي الإلهي: "أنت أخذت بيمينني وبمشورتك تهديني"¹⁸ وهكذا يصحني نهاية حياتي.

يجب على النفس أن تطرح عنها كل قلق وأن تجد في تميز مشيئة الله في كل لحظة. حتى إذا عرفت أنها تستسلم لله بمحبة وامتثال.

ما أكثر ما يلذ لله تسهيل نصيبنا في عمل التقديس ومع ذلك تعرف بعض النفوس كيف تخلق لذاتها صعوبات في هذا الأمر البسيط. أنها مستعدة لتتبع المشيئة الإلهية عندما تراها، ولكن كيف السبيل إلى معرفتها؟ وهكذا يتعلق تفكيرها، تعلقاً محموماً، بموضوع اللحظة الحاضرة ويتفحصه، ويقبله، ويفحصه، ويزنه

¹⁷ مت 3:18.

¹⁸ مز 24:72.

لي تحقق من أنه يدعى المشيئة الإلهية. وكلما ازداد قلق هذه النفوس ازداد ارتياها، وكلما ازداد ارتياها، ازدادت رغبة في تفحص الأمور.

أيها النفس الموسوسة المسكينة، تعلمي أن تخدمي الله في سلام وهدوء. إن واجب اللحظة الحاضرة يمتنع عن أن يكون واجباً عندما لا تعرفينه، فإن لم يدركه عقلك فهو ليس بالنسبة إليك مشيئة الله. ولمثل هذا الفحص لا تلمك جهود طويلة، إذ تكفي ثانية واحدة يكفي الوقت الذي يستغرقه إلقاء نظرة على الله، وعندئذ يملأ الضمير الجواب. فإن كان إيجابياً قبلته الإرادة، وإن كان سلبياً تخلت عنه، وإن كان موضوع شك وارتياح تركته من غير أن تقلق. فالله عندما يريد أن يعلن لنا أمراً يفعل ذلك بوضوح.

إن النفوس المسكينة المعرضة للوسوس تضيع أحياناً وقتاً طويلاً في التساؤل عن أي فعل يرضى الله بالأكثر. هل يجب تكريس وقت الفراغ للقراءة أم التأمل، للعمل اليدوي أم للدرس؟ أليد الله أكثر الغوص في الوحدة أم التحدث بالأشياء الروحية أن يحيا المرء حياة تأمل أم أن يبذل ذاته في خدمة القريب؟.

أيها النفس المسكينة أن هذه أسئلة باطلة: فليحط لك معرفتك أو مرشدك الروحي. لكن لا تتوقفي عندها، بل تمي ما تعرضه عليك اللحظة الحاضرة. فإن لم يكن وهناك شيء مرسوم فافعلي ما يبدو لك حسناً لأول وهلة، دعني جانباً كل فحص وكل قلق. فأول شيء يريده الله هو أن لا تضيع النفس وقتها أو هدوءها الداخلي.

المقالة الرابعة

إن الله يعلم بذاته النفس الحرة

إن النفس الأمينة على استيضاح المشيئة الإلهية في كل لحظة بنظرة بسيطة، تكتسب سهولة عجيبة في تمييز واجبها فتبناها غريزة سرية أن هذا العمل مرضي لله وأن ذلك هو أقل إرضاء له. هذا التمييز الموحى هو ميزة النفس البسيطة، فالله يحب التحدث إلى القلوب المستقيمة، ويناجيها بآلاف الطرق العجيبة. إنه يعمل فيها عادة بانفعالات سرية، فتحس النفس بأن الله يكون مسروراً أن هي أقدمت على عمل ما أو قامت بتضحية معينة. وهكذا فهي تبذل ذاتها بلا تردد ولا فحص، وتتم مشيئة حبيبها. والله يقودها على هذا النحو في كل مشاغلها.

ويدعو الله النفس أحياناً لتكون أقرب إليه. وهي عندما تسمع هذه الدعوة، تترك كل عمل لا ترسمه لها الطاعة وتسرع إلى قرب يسوع. أنها تعرف أن المعلم الإلهي يروم محادثتها في ذلك اليوم في ألفة أشد، وأن يسر إليها أسرار الإلهية. لكن النفس لا تعرف أن تفسر هذه الغريزة الفائقة الطبيعة التي تدفعها، بل تشعر فقط بتأثيرها وتعرف أنها آتية من الله.

إن سلوكها يظهر أحياناً غريباً، لقليلي البصيرة، فينعتها هؤلاء بقلة الفطنة بل بالتهور. أما هي فتدعهم يتحدثون بما يشاءون وتواصل سيرها، ساهرة على ألا تناقض أفعالها واجباتها الصريحة، ولا إعلانات مشيئة الله الجليلة. وهي كلها أذان لسماع الصوت الداخلي الذي يدعوها ويملي عليها رغبات العلي. هذا الصوت هو كالنسيم العليل يلاطف عند مروره النفس التي تشعر بالتأثير الإلهي فتتهلل وتطالع في الحال.

بالحقيقة، كم يحتوى عالم الله من العجائب! ما أعظم الأسرار التي يعملها الله في النفس الخاضعة لفعله الدائم! ما ألد تلك المناجاة القلبية الدائمة، والنفس قد تخلت عن كل اهتمام يتعلق بالماضي أو بالمستقبل، لا تعيش إلا لهذه اللحظة الحاضرة، متركزة كلها في الله ومنتبهة لصوته ومستسلمة لعمله! لو عرفت النفوس أن تكتفي بهذه الحاجة الوحيدة لكان الله يعمل فيها كلها أموراً عجيبة.

غير أن هـذا يتطلب هجرًا لعالم من الأفكار يملأ الرأس ولرغائب ومخاوف لا عدد لها تختمر في داخل الكائن المرفه الشعور، ولنزعات، ولمودات، ولتعلقات تكبل القلب وتتنازع من كل جهة، فتتهكبه، وتجفقه، وتتفرقه من أمور الله. ذلك يتطلب التخلي عن قيادة ذاتنا بحسب إرشادات فكرنا، ثم أن نلقي على الله كل همومنا وأن نطرح جانبًا كل اعتبار يتعلق بكرامتنا، وقصاري القول أن ننسى أنفسنا وأن نستسلم لله في اللحظة الحاضرة.

إنه لمحزن أن نرى نفوساً كثيرة طيبة مدعوة لحياة الألفة مع يسوع يشغلها كثير من الأشياء الباطلة، فتغدو مهتمة، حزينة، متضجرة، قلقية، لأنها لا تريد أن تحصر حياتها في اللحظة الحاضرة التي يعطيها الله أن تحياها.

ماذا يهمك من المستقبل أيتها النفوس البسيطة، هذا المستقبل الذي يعرف الله وحده ويستطيع وحده أن يهتم به؟ ماذا يهمك من الماضي الذي لن تحيي ذكره من بعد، والذي تغاضى الله عنه إن كان سيئاً، وحفظه إن كان جيداً؟ لم تهتمك حوادث الحاضر التي تتعلق بالآخرين ولا تتعلق بك؟ فليس هناك بالنسبة إليك سوى شيء واحد مهم: هذه اللحظة التي يرسمها الله لك. فقدسيها على قدر استطاعتك بحسب النعم التي يعطيها لك الله، وبحسب القوى الجسدية والأدبية التي أولاك إياها، وبحسب المعرفة التي أحرزتها ثم البثي في هدوء: فقد بلغت قداستك منذ هذه اللحظة.

اخلق فينا أيها الرب قلباً بسيطاً ومستقيماً. وأنت أيتها العذراء المباركة، أشركينا في نقاوتك التي لا عيب فيها، وفي تجردك الشامل التام.

المقالة الخامسة

لكي نبذل ذاتنا لله، حسبنا أن نحب

إن واجب تقديس الذات يتلخص، في نظر الله، بإتمام واجبات اللحظة الحاضرة. فمن ذا يستطيع الاعتراف نقاد بأن في هذا الطلب الإلهي بعض الغلو؟ ليس تقديسنا عملاً صعباً على الله. هذه الواجبات مهما كانت بسيطة، يجب أن تتم فهل أن إتمامها أمر عسير علينا؟

إن التقديس يعنى بذل الذات لله جسداً وروحاً، وإخضاع الحواس للعقل والعقل للإرادة والإرادة لله، وأن تضبط أهواءنا، وأن نقاوم العادات السيئة ونتغلب عليها، وأن نكبح الميول الشريرة، وأن نصمد أمام تيار المبادئ الفاسدة وإغراءات العالم، وقصاري القول أن نقاوم، بلا هوادة، أنفسنا والشيطان والعالم فهل هذه المهمة طفيفة، وهل يمكن القول بأن بذل لله أمر سهل؟

إن ما يبدو حَمَلًا ثَقِيلًا لاكتفانًا قد خففه الله كثيرًا، إن ما يظهر معقدًا في عمل التقديس، بسيط. جدًا
الآن الله نفسه هو صانعه "إن ما يخيفنا بتعددته وتنوعه قد رده الله إلى وحدة عجيبة.

إن الآلة الإنسانية هي من صنع عامل إلهي، ولذا فهي كاملة بكل أجزائها. وقد وضع الله في وسطها
دولابًا رئيسيًا هو الإرادة. وهذه تحرك سائر القوى وتوجهها بحسب مرتضاها. فالإرادة، بما أنها أكمل من أي
تركيب آخر، حرة في حركاتها. يتلخص الإنسان كله في الإرادة والإرادة تتلخص بدورها في فعل واحد من
أفعالها والمحببة والإرادة تستطیع أن تشتهي، وتخاف، وترجو، وتيأس وتكره، وتفرح، وتخزن، وهذه
الانفعالات كلها هي مظاهر فعل واحد أساسي هو المحبة. حياة الإرادة وحاجتها وميلها الذي لا يقاوم، هو أن
تدب. فإذا انتظمت المحبة. تكون الإرادة كلها سالحة، والإنسان كله مقدسًا. أما إذا اختلت المحبة فالإرادة
تكون كلها فاسدة. الإنسان كله شريرًا.

فتوجيه الحياة إلى الله يعني إذن تنظيم المحبة. وعمل التقديس كله يتوقف على بذل القلب كله لله. كان
القديس أوغسطينوس يقول: أحبب وأصنع ما تشاء¹⁹ لأنك إن أحببت الله فلن تعمل إلا أعمال المحبة هاربًا من
الشر الذي يهدمها ومبتعدًا عن لأخطار التي تعرضها للضياع. وهذا هو السبب الأساسي للوصية الوحيدة:
"تحب الرب إلهك بكل قلبك... وقريبك كنفسك"²⁰.

فعليك إذن، يا نفسي، لتتلمي وأجيبك في اللحظة الحاضرة، أن تبدلي ذاتك لله بمحبة، وأن تسلمي إليه
قلبك كله، وبعد ذلك أن تتلمي العمل الحاضر بإرشاد هذه المحبة، فتحتلمي الصليب المفروض عليك وتبتعدي
عن الشر الممنوع. ولئن كنت لم تفكري بالله في هذه اللحظة عينها لتبدلي له قلبك، فلا تخافي شيئًا لأنك بذلت
له القلب منذ زمن طويل ولم تتراجع.

فتقديس النفس يعني إذن بذل ذواتنا لله اللحظة الحاضرة بمحبة حارة، والاستسلام له لإتمام مشيئته
بحسب قوانا ومداركنا، تاركين له أن يتصرف بخليقته كما يشاء، ومسلمين إليه الماضي والمستقبل، ومكلفينه
بتدارك كل شيء وترتيب كل شيء وإصلاح كل شيء.

المقالة السادسة

حسبنا أن نريد المحبة لتكون لنا

ليس أجمل ولا أروع من جيش منظم مؤلف من جنود شجعان، يقودهم ضباط مدربون. إن قوة مثل
هذا الجيش ملقاة بيد رجل واحد. فالرئيس يصدر الأوامر، وصداها يتردد بين جميع الضباط حتى يبلغ أذن آخر
جندي. إن إرادة واحدة تضبط إرادة ملايين الناس وفكرًا واحدًا يوجه عقولهم.

والإنسان بملكاته المتنوعة وأهوائه وحواسه مع أفعالها وحركاتها وانفعالاتها التي لا عد لها، يشبه
جيشًا عظيمًا. وفي داخله يسود ترتيب كامل للتنظيم والأمر. أما القائد الأعلى فهو الإرادة.

¹⁹ تعلقًا على 1 يو 7:4.

²⁰ متى 22:37، 38.

تسد تطيع الإرادة أن تملي أوامرها على كل اتباعها، ولا يلومها لذلك إلا فعل إرادي فينتقل أمرها حالاً حتى إلى أدنى الملكات وينفذ فإن كانت الإرادة أمينة لملكها يكون الجيش كله كذلك، وإن خانت عهده فالجيش كله يقع في يد العدو. ولكي تتم الإرادة واجبها لا يلزمها إلا أن تبقى في وظيفتها: أن تكون إرادة، أي أن تكون رئيساً حازماً يعرف ما عليه أن يفعل ويروم أن يطاع.

يا نفسي! انك تجهلين القوة التي منحك إياها الله، ولم تدري يوماً القدرة التي تملكين: فإن الله الذي أعطاك الإدارة لتتسلط بها على سائر الملكات، قد البسها الصفات اللازمة للحكم، فلك أن تستخدمها وتوسعها وتكمل بها بالتمرين الدائم والصلاة الخاشعة. فلا تجزعي إذن من الصعوبات التي تعترضك، بل اجعلي الإرادة على رأس جيش الأهواء والعواطف والمشاعر والمخاوف والآمال والهموم التي تكون داخلك وتغذي فيه البلبلة، وبعدئذ لا تهتمي بما أقلقك حتى الآن. لا تتبعي أفكارك ورغباتك وتصورات مخيلتك في مداراتها التي لا آخر لها. لا تخافي حركات الثورة التي تحاول أثارها شهواتك الجامحة ولا تعيري انتباهها لصخبها، أنها قد تعودت العبث ولا يمكن إخضاعها في يوم واحد. لكن النظام سوف يسود من غير أن تشعرى بشرط أن تتركى للإرادة كل سلطانها. ما أعظم أن يعيش المرء بإرادته. ما أبهاه لا يترك نفسه تنقاد للأهواء، وتغيير المزاج، ويحملها موج المخاوف والرغبات والمسرات، وتتحكم بها انفعالات الساعة الحاضرة وإيحاءات الحواس والمبادئ الغريبة! ما أجمل أن يبقى الإنسان ثابتاً كالصخر بينما تزمجر عاصفة الشهوات، ويهدد البحر الهائج بتبديد كل شيء.

هذه، يا نفسي، هي الحياة التي ستحيينها، فالإنسان يتلخص في إرادة والإرادة تركز قدرتها في فعل المحبة. فاحملي إلى إلهك، في كل لحظة. هذا الفعل المضطرم فتكوني قوية كالله نفسه.

المقالة السابعة

إن الله يقابل بذل النفس، ببذل ذاته

تتجلى إرادة الله في كل لحظة بشكل واجب لا بد من إتمامه وشر يجب اجتنابه. وصليب حملته، والنفس تجيب في كل آونة من يومها بإثبات طاعته وبذل ذاتها لله بشغف. في هذا العمل الوحيد يلتقي ويتعانق الخالق والمخلوق فالنفس تستسلم بكاملها لله، والله يعطي ذاته بدوره بلا تحفظ. كل حدث يهيب بالنفس كطيب ثمين. وفي كل مرة يجيب الله بمزيد من الحب والسخاء.

ألا تدري يا نفس من نطاقك الضيق واسكني ذاتك في الله فإن هذا الإله العظيم، والمحيط الذي لا غور له ولا حدود، يتنازل إلي أن يفيض هو بدوره ويخرج من ذاته ويملأك. الأقانيم الإلهية الثلاثة السامية تروم أن توطد فيك سكنها وتجعل فيك مقام محبتها.

نظرة واحدة من نظراتك يا نفسي قد خلبت قلب الله ودفعته إلى النزول إليك. لقد تمت محبتك باتضاع وهما أن السماء كلها تتويجه إليك، وهما هوذا الله نفسه لا يستريح حتى يبذل لك ذاته بوسعه أن ينتظر الحياة الآخرة ليغمرك بحبه. لكن محبته لا تعرف التأجيل.

يا إلهي إن من يراك في هذه اللفة يخيل إليه أنك بحاجة إلى محبتي. أنك تتعم عندها تشعر بقلبي يدق بقرب قلبك، وعندما تحدد بناظريك الإلهيين في عيني، وعندها تسمعني أناديك: يا أبى.

يا نفسي، استسلمي لمحبة الله ولفيض نعمه. أن حياتك قائمة في الله. إن الأقانيم الثلاثة فيك دوماً، تهتم بك، فابذلي ذاتك لها، واستسلمي لأرادتها ومحببتها.

إن الأب يخلقني ويحفظني، والابن يفتديني وينقيني، والروح القدس يقودني ويقديني. الأب يحملني بقدرته والابن ينيرني بحكمته، والروح القدس يغنيني بصلاحه.

أيها الأب والابن والروح القدس، الثالث المغبوط، ينبوع الحياة والحق والمحبة، كن ملكاً عليّ. إن كيانني الواهي يفيض حياة وارتياحاً عندما يركن إليك، وظلامي يتبدد، وقلبي الجامد يذفأ وينفج. إن دهمتي الوحده فلن أخاف، لأنني في صحبة أحسن أب واحب أخ واخلص رفيق، وعندي ما أتحدث به معه طيلة قرون. إن داهمني الحزن أو غشى نفسي الشوق المفرط إلى السماء فلن أخاف ذلك، لأنني في نبع سعادة، لأنني في السماء فعلاهم أحسد الملائكة والقديسين؟ بوسعي أن احب الله إلى الغاية وبلا توقف: أليست المحبة هي السماء؟

المقالة الثامنة

بذل الذات يحوي ممارسة كل الفضائل

إن بذل الذات يجتذب الله إلى النفس ويجتذب معه كل كنوز السماء. وهذا البذل عينه يسلم إلى الله الإنسان كله نفسه وجسده، وكل قواه، وكل أفعالها دون استثناء. ومتى صدر العطاء هذا، واستمر قائماً، لا يبقى للنفس شيء تعطيه لله. أن هذا العطاء على بساطته هو ممارسة كبرى لأسمى الفضائل.

أنا إيمان حار جداً، تستسلم النفس لله بلا تحفظ ولا رجوع وتؤمن أنه سيدها المطلق، وفاديتها ومقدسها. هو إثبات رجاء مطلق بالله، به تعطى النفس ذاتها لله طارحة كل اهتماماتها بين يديه، ناسية حاجاتها، مظهرة أن لا حد لثقتها بالذي تستسلم له. أنها مستعدة في كل وقت أن تضحي له كإبراهيم، بأعز شيء لديها. ومثله تعرف أن خلاصه وعونه يأتيان حتى عندما يخيل للمرء بأنه لم يعد هناك من نجاة.

إن بذل الذات هو محبة كاملة، هو في جوهره. محبة. فالمحبة هي التي تمليه، وتصوغه، وتعطيه صفاءه وثوابه، وهي مقياس حرارته وقوته.

آه! ما أظن حياة نفس بذلت ذاتها لله! أنها كالسيرافيم لا شغل لها سوى المحبة كساؤها وغداؤها وتنفسها.

إن بذل الذات هو ممارسة لسائر الفضائل. فالنفس التي تستسلم لله مستعدة في كل أن تمارسها كلها من غير أن تتعلق بواحدة منها علي وجه التخصيص، وحالما يطلب الله منها ذلك فهي تمارسها بسخاء. هي متواضعة فتعرف جيداً أنها، وأن أعطت كل شيء لله، تبقى "عبدة بطالة". أنها تمارس الأمانة، وتتقبل بفرح كل الصدمات التي يقدمها لها يسوع. أنها نقية تعيش على هذه الأرض، متجردة من كل تعلق بالملذات الدنيوية. هي

غ بور تخصص كل ل أوقات حياتها لمجد الله وشرف اسمه. وهي سخية قد أنكرت ذاتها إلى الأبد وأسلمتها بكاملها في كل لحظة، فما عادت تفكر إلا في إرضاء يسوع.

إن معلمنا الصالح قد لخص الكمال في هذا العمل الوحيد بذل الذات في البرهة الحاضرة. إن بذل الذات ه ذالقاء بين الله والنفس انه شركة لا تتقطع، انه الكمال في أسمى درجة يستطيع الضعف البشري أن يصبو إليها.

ب بذل الذات ه ذالقاء كل الصالحين الذين عاشوا على الأرض قبل المسيح. لم تكن لديهم معرفة بشرية بالقداسة، ولم تكن لديهم الكتب الروحية لتحصيل هذه المعرفة لكن وحي الروح القدس كان يكفيهم ويغنيهم على كل شيء.

ب بذل الذات ه ذالقاء نفوس التي عاشت بعد مجيء المخلص: الرسل والشهداء والعداري والمعترفون وذلك العدد الغفير من القديسين والقديسات الذي يجهلهم جمهور الشعب، الذين تكرم السماء فضائلهم وتمجدها.

ببذل الذات هذا أيضاً تتقدس نفوس النخبة التي تتبع الآن يسوع على الأرض. إن أكثرها مجهول عند البشر، معروف عند الله وحده، لكنها كلها تواصل في العزلة والخفاء رسم صورة المسيح في ذاتها. حياة هذه النخبة بسيطة عظيمة مترفعة على الاهتمامات الأرضية، بعيدة عن ضجة العالم وبلبلته أنها تتمتع بهدوء بالها والله يسر بأن يتم عجائبه فيها.

القسم الثاني ممارسة تسليم الذات لله الفصل الأولي

ممارسة تسليم الذات بوجه عام المقالة الأولى علام يقوم بذل الذات؟

إن علم الحياة الروحية ليس في معرفة واجب بذل الذات لله، بل هو على الأخص في معرفة طريقة ممارسة بذل الذات ولحسن حظ النفس، ليس في هذه الممارسة أي سر يخفي عليها.

إن بذل الذات هو فعل من أفعال الإرادة الحرة. هو اندفاع القلب المستسلم بكامله ليسوع. وهو شغل الإرادة تساعدنا النعمة. ماذا كانت العواطف مضبوطة فأنها تصبح مساعدًا نافعًا.

إن النفس ليست بحاجة لأن تشعر بالافتقار أو الارتياح عندما تفكر بأنها استسلمت لله.

يا نفسي! تعلمي أن تعيشي بالإرادة، ولا تدعي العواطف وما تولد من أهواء تقودك كالأعمى. استند لمي الله بإرادتك، وهذا الفعل روحي بكامله، ولا يحتاج أن يلبس عبارات، ويحوظ باعتبارات جميلة، وان يجعل محسوسًا بأقوال.

إن بذل الذات هو لقاء بين الله والنفس. وهذا اللقاء يتم في صميم الإرادة بمحبة فائقة.

لنذرع من الحياة الروحية تعقيدهما، ولنردها إلى مفهومها الصحيح فتظهر لنا سهلة وغنية. إن الله لا يحرّم ما هو عاطفي إذ كثيرًا ما يمنح التعزية ويحرك القلب. وإنما يريد فقط ألا تعلق على ذلك أية أهمية، وألا ننصوّر في أيام الحزن والظلام أنه قد حجب عن النفس حنوه وعنايته الأبوية.

المقالة الثانية

يجب أن تبذل النفس بكل ما بوسعها من الكمال

لقد جعل الله القداسة في متناول الطبيعة البشرية فبذل الذات هو اندفاع قلب محب نحو أب هو أفضل الأبناء. فعلى النفس إذن أن تركز كل جهودها في بذل الذات وأن تقصي عنها كل اهتمام آخر.

لقد أراد يسوع أن تتركز طبيعتنا الإنسانية وتتجمع بكل قواها في المحبة. فلنكتف بتسليم ذاتنا إليه في كل لحظة بمحبة.

ومتى طرحت النفس عنها هكذا كل اهتمام آخر عليها أن تبذل ذاتها بكل ما بوسعها من الكمال وأن تجعل فيه كلى قوة وكل نقاوة.

بوسع أرادتنا أن نحب محبة حارة جداً، فغاية وجودها الوحيدة هي أن تحب. لقد قيل عن الله أنه مدبة، هذا هو جوهره. لكن لا يمكن للإرادة أن تكون محبة في جوهرها، فهي ليست إلا القدرة على المحبة، غير أن كل ما أعطاه الله من إمكانيات يستدعى المحبة.

إن القلب البشرى هاوية لا قرار لها وحوض لا حواف له يتطلب دائماً مقداراً أعظم من المحبة. وكلما امتلأ شعر أنه فارغ، وكلما أراد أن يروى عطشه، أزداد عطشاً إلى المحبة.

أنا ندرك بصعوبة هذه القوة المحبة الخارقة التي حبا الله بها قلبنا. إننا نحب في حياتنا العادية، وشدة هذا الحب تظهر في ساعات الفراق فقط عندما يكون القلب على أهبة فقدان الشيء الذي كان يحضنه. وقد يذهب هذا الحب حتى اليأس، وقد يسبب الموت. "فإن المحبة قوية كالموت"²¹.

ما أقوى المحبة الكامنة في قلبنا! لكننا نوزعها على أمور لا عد لها. فكل ما يروقنا نعلق به، وكل ما يبدو لنا جميلاً وحسناً يأسر قلبنا ويقيده. وهكذا نبذر كنوز المحبة المتكدسة في داخلنا.

إن الله يدعونا إلى أن نفتح قلبنا واسعاً افتح فمك وأنا أملأه²² ألا وسع رغائبك، وسع قلبك، أبعد حدوده ثم ادعني إليك، فأملأك كبحر زاخر.

على النفس أن تنقى سلامها لله من كل امتزاج بمحبة الذات، فمحبة الله ذهب خالص وأقل امتزاج بعنصر غريب يكدر لمعانه وجماله.

يجب على المرء، عندما يريد أن يحب الله، أن تكون لديه الشجاعة الكافية لينسى ذاته ويستسلم إليه تعالى بلا حساب. وعلى النفس أن تغوص في الله كحجر يرمى في اللجة. ومن المعلوم جيداً أن هذا الحجر لن يعثر أبداً إلا على سطح الماء، وأنه قد ضاع إلى الأبد عن استعمال البشر. كذلك النفس تترمي في أحضان الله مستسلمة لعنايته ولعمله.

وهكذا تسعى النفس إلى أن تعطى فعلها كل ما تستطيع من حرارة وإخلاص، وعمل التجديد والتنقية هذا يتم داخل النفس في سكون، من غير إجهاد ولا إعياء.

المقالة الثالثة

ممارسة بذل الذات

توضع أسس البناء الروحي عندما تبذل النفس المخلصة ذاتها لله بمحبة سخية. ثم ينبغي البناء أعنى: تجديد بذل الذات، بتواتر. هذه هي ممارسة بذل الذات. إنها تتم بالبساطة والوداعة الهادئة عينها التي تتم بها النفس المستسلمة لله واجباتها كلها.

²¹ نشيد الأنشيد 6:8.

²² مز 11:80.

فم نذ الصباح، عند النهوض من النوم، تتجه النفس إلى الله وتسلم إليه كيائها كله، راجية منه أن يتصرف به بحسب ما يشاء. وهذا الفعل يقوم عندها مقام صلوات طويلة: إنه قبول المحب لكل ما سيقع له طول النهار من حلو ومر، من هين وشاق. إنه استعداد فرح لعمل كل شيء وتحمله في سبيل إرضاء الله.

وتجتهد النفس بأن تستقر في هذا الاستعداد الأساسي وتعيد بذلها المفضل حيناً بعد آخر. إذ تخشع على هذا النحو أمام الله تتصرف إلى الصلاة والعمل بحسب مقتضيات مهنتها. أنها تبقى سيدة ذاتها خلال أشغالها فتعمل بلا بطء ولا تسرع، ولا تدع مجالاً ليتسلط عليها الشوق إلى الانتهاء من هذه الأشغال بسرعة، ولا الرغبة في اكتساب تقدير الآخرين، ولا السرور الذي تجده في شغلها.

أنها ليست لذاتها لكونها قد استسلمت بكاملها إلى سيدها الصالح. وليست أيضاً مستعبدة لعملها لأن العمل ليس غاية بلى وسيلة فقط.

هكذا تم النفس تبعاً بواجباتها المختلفة وهي متسلطة على ذاتها تماماً، وبقلب حر غير مرتبك، فتسمح لها هذه الحرية الداخلية بمباشرة كل عمل بروح منفتح وانتباه متواصل بلا تعب أو تسرع وبلا تراخ أو تباطؤ.

إن أنشط الرجال هم الذين تبدو عليهم علامات النشاط أقل ما تبدو، أما القلقون والمتشاغلون فهم يكادون لا يعملون شيئاً. إنهم يبدؤون لكنهم لا يتمون. وبعد العمل يكون قلبهم مضطرباً وعقلهم مشغولاً وعاجزاً عن التفكير بالله أما النفس البسيطة فهي، بعكس ذلك، تقتدي بالله الذي يعمل بهدوء.

هكذا تقضي النفس يوماً متسلحة ببذل ذاتها لله. أمر تعيده في كل عمل تعمله وفي كل صعوبة تعترضها وفي كل ألم يحدث لها وفي كل سرور أو حزن تشعر به.

إن لها طريقتها الخاصة في الصمود للتجارب وإبعاد الملهيات فهي عندما تراها لا تطردها حالاً، وإنما تهملها وتكتفي بأن تتردد: يا يسوع، إنني لك بكاملني فاعني وهي تتقبل كذلك بكل محبة المعاكسات والصلبان والآلام اليومية.

وأوقات الراحة لا تقطع اتصال النفس بالله فهي تقضيها بقلب حر عارفة أن الله يريد لها لكنها لا تستسلم فيها لسرور بطل ومفرط. فكل شيء معتدل. وكذلك وجبات الطعام، فهي تتناولها غير مهتمة بنوع لأطعمة: ألا يأتيها كل شيء من يد الله أبيها؟ فلا تنتبه إلا لهذا الأب الحنون الذي يحبها بحنو، ولا تفكر بسواه.

وعندما يأتي المساء تتمم النفس في بذل ذات أرق - إن يمكن ذلك - وابلغ، لكي تعوض عن أخطائها وما أهملته في نهارها المنطوي، وبعدئذ تنام بسلام تحت أعين المعلم الصالح الذي يسهر عيها.

المقالة الرابعة

المصاعب التي تلاقيها النفس

في ممارسة تسليم الذات

تتعاقب الأيام والشهور والسنوات في ممارسة بذل الذات، رتيبة في ظاهرها، لكنها في الواقع مملوءة تنوعاً. الأساس يبقى هو: البذل، لكن الله رسم على هذا الأساس الواحد صورة ألوانها غير متناهية في تنوعها.

لا يريد في كل الأيام لا تتشابه. فأحياناً تكون النفس كلها يقظة في محبتها. كل شيء يكون لها سهلاً، كل شيء يملؤها نشوة. فتشعر أنها محمولة في الله كقشة خفيفة. وأحياناً أخرى تجر ذاتها بصعوبة وتحس بأنها عبء على ذاتها وعلى الآخرين، وأنها مقيدة بالأرض وأفكارها لا ترتفع إلا بصعوبة، ثم لا تلبث أن تسقط ككتلة ثقيلة.

إنه من السهل عيها نسيًا أن تبذل ذاتها لله وقت الصلاة. لكنها تحس بالتعب وقت العمل وفي تتابع الواجبات اليومية. إن عذابها الكبير يتأتى عن عجزها في ذكر حضور الله. فكل شيء معه، يكون عذباً وهيناً. ولكن عندها تنتهي الصلاة تحاصر النفس الملهيات والمشاكل العديدة والهجوم، فتشغلها وتجرفها في تيارها.

مس كينة هذه النفس... لكن لها عزاء رغم هذا، فيسوع يطلب شيئاً واحداً هو أن تجدد بذلها عندما تفكر به. فلتذهب النفس إذن إلى عملها بقلب خال مصممة أن لا تفتش فيه عن لذة ذاتية، بل عند تتميم المشيئة الإلهية. ومشية الله هذه تشمل الشواغل التي تفرضها الطاعة والظروف الاجتماعية والحاجة واللياقة. إن للنفس المستسلمة لله طموحاً مقدساً إلى تتميم اصغر واجباتها بدقة. أنها ترى في كل شيء مسرة أبيها السماوي، وهي تحسب أنها ما ترتكب خطيئة لا تغفر إن غيرت بارادتها الذاتية أدنى شيء من الترتيبات الإلهية بشأنها. وهي تفتش بفصول عن معرفة ما يطلبه الله من الآخرين، فليس لها إلا نظرة واحدة، وهذه النظرة متجهة بكاملها نحو واجبها، وليس لها إلا بغية واحدة هي أن تتم جيداً هذا الواجب.

إن العمل هو كالسر الذي تتقبل فيه النفس السيد المسيح، إنه الحجاب الذي يخفي وراءه السيد حضوره الحقيقي والقلب البسيط يمزق هذا الحجاب ويرتمي بين ذراعي سيده.

كل عمل يتم على هذا النحو، هو بذل ذات جديد لله. والنفس المؤمنة تتقدم بلا انقطاع في هذا الطريق المؤدي إلى الكمال ومع مر الزمن، ومن غير أن تلاحظ ذلك، يتحول فيها كل شيء ويناله، فيسوع يبذل ذاته بقدر ما تستسلم النفس إليه، إنه، يضع ذاته بديلاً عن النفس وينزع عنها عيوبها ويزينها بفضائله الخاصة.

يما يسوع، أنى لا أريد أن اكتفي بان أقدم لك مرة واحدة بذل نفسي الكامل، بل أريد أن اجعل من هذا البذل أساس كل حياتي وشغلها، ففي هذا كمالى.

المقالة الخامسة

التعود على بذل الذات

إن الطديعة تسألزم وقتاً طويلاً لتتضح ثمرة فقط. والله يستعمل وقتاً أطول لينضج في النفس ثمرة لقداسة.

بعد برد الشتاء، وتحت تأثير أوائل أشعة شمس الربيع، يمتلئ البرعم بالعصارة ثم يتفتح زهرة جميلة. لكن حياة الزهرة قصيرة عابرة لا تلبث أن تسقط فتسمح للثمرة بتكوين نواتها الأولى. وبهذا يبدأ عمل نمو وتكاثر طويل في ظروف صعبة: فعلى الثمرة أن تتحمل الحر والبرد، الصحو والشتاء، وأحياناً يظهر أن كل العناصر تتحالف ضدها لتنتزعها من الغصن الذي يحملها ويغذيها بعصارتها.

هناك عمل تكوين الثمرة الشاق الطويل وهو يشبه بذل الذات تمارسه النفس طويلاً. وفي أحوال شتوية، تحت أشعة الشمس الإلهية المحببة. عند زيارة المعلم الإلهي، كما في وسط العواصف والأمطار، وتحت وطأة رياح الشمال وفي أيام الصيف حيث يبدو كل شيء وكأنه يتأمر لإرهاقنا وتحطيم صبرنا.

لكن هذا كله حسن ومفيد. فالفضيلة تتقوى هكذا تدريجياً، والثمرة تبلغ نموها التام، وتكسب عطرها العذب ولونها البهيج وطعمها اللذيذ.

وأخيراً يأتي الخريف، فيزداد صفاء السماء وتخف حدة الشمس: هذا أوان الحصاد. وكذلك النفس التي بلغت هي أيضاً ما خريفها الروحي، تظهر أحياناً أقل اضطراباً بمحبة الله مما كانت عليه في أيام الصيف المشمسة، بيد أنها قد تعدت منذ زمن طويل حقبة النمو الصعبة. لقد انتهت المرحلة البطيئة والشاقة في اتحاديها بالله، وهي الآن تتمتع به. هذا هو بذل الذات الذي أضحي لديها حالة عادية هنيئة.

فإن النفس تترك الله، في كل ظرف، بسهولة وبساطة، وتتم كل أعمالها بقبول وبلا تسرع، تحت نظره الإلهي. لكنها لا تتميز عن النفوس الأخرى، فهي لا تنفرد ولا تصنع أي شيء غير اعتيادي من تلقاء نفسها ذاتهما كما أنها لا ترتبك لأنها كلها لله. هي تكفي بإتمام مشيئة الله ببساطة وبلا تصنع أنها أنيسة وطيدة، لكنها لا ترتبط بشيء أبداً ولا تؤسر: فيسوع لا يسمح بذلك لأنها ملكه هو. أنها تعيش متخفية بقدر ما يريد يسوع، لا أكثر ولا أقل. وحدها يدفعها نحو الحياة المتواضعة المجهولة المتوارية لأنها تجد في الخلوة ينابيع أكثر عذوبة لتروى العطش الذي يعذبها.

لكن هذه النفس البسيطة والمجهولة هكذا، التي قلما يقدرها العالم، تحيا في الحقيقة فوق الأحداث الدنيوية. حياتها تحليق نسر في أجواء الله الواسعة، وكلما اخترقت هذه الأجواء رأت لأفق يتسع أمامها دون توقف: إن عليها إن تتجاوز اللانهاية.

يا لها من حياة مغبوبة ويا له من توفيق مقدس! ما أسمى حياة الاتحاد هذه. إنما ثمرة بذل الذات المستمر، التي تجنيها النفس البسيطة باجتهادها وجدها.

المقالة السادسة

بلوغ النفس الكمال في ممارسة بذل الذات

إن حياة الإنسان هي سلسلة لا تنقطع من الواجبات، هي تعاقب حوادث مبهجة ومحزنة.

العقل البشري لا يرى إلا الحاضر، أما الله فيحيط بمجمل الأحداث التي تؤلف الحياة بكاملها. وهو قد سبق فترتب تفاصيلها كلها، وحدد كل لأوقات مازجاً الهيئات بالمضنيات، والأفراح بالأحزان، ونجاح المساعي

بالفشل. وقد دد للحياة دوامها وغايتها وكل شيء في مقاصده الإلهية يجب أن يؤول إلى مجده العظيم وتقديس مختاريه.

والنفس البسيطة التي أكتسب بكثرة الممارسة عادة بذل الذات، تستسلم لقيادة الله في كل حوادث الحياة، وهي إذ تجهل المستقبل ولا تريد أن تعرف عند شيئاً. تكتفي بأن تمسك بيد الله وترافق سيدها طيلة نهارها. إنها لا تعين لدا يلها الطريق ولا تفرض عليه مواقف الاستراحة، فذلك كله من شأن الله. أما دورها هي فهو لن تتمسك باليد التي تقودها وتمضى في سيرها: أنها تعرف أن الله سيد الزمان والحوادث وأنه سيبليغ المصير في الساعة التي سبق فحدها.

والنفس التي يدها الله في الحياة لا تدهش لشيء. وكثيراً ما لا تفهم شيئاً من الحوادث المتتابعة حولها ولا من التغيرات الحاصلة فيها، فلا تهتم لجهلها هذا إذ تعرف أن بيد الله مفتاح وقائع التاريخ جميعها وتفاصيل حياة كل إنسان. لقد علمتها الخبرة أن بعض الحوادث التي لا أهمية لها في الظاهر حدد أن يكون لها اعظم النتائج، وان حادثاً لا أهمية ظاهرية له قد أراده الله ليجنبها خطراً ما. وهكذا فهي لا تحكم على شيء بأنه تافه أو قليل الأهمية في حياتها، كما أنها تتقبل أقل الواجبات وابتسط الحوادث وأصغر الصلبان بعظيم الاحترام، وعميق المدبة. فهي تعرف أن هذه كلها بمثابة كسرات من القربان المقدس تحوي، على صغرها، ذات الله الكاملة.

إنها لا تميز بين الواجبات التي عليها أن تتممها، والصلبان التي عليها أن تحملها. فتتقبل هذه وتهمل تلك. لأن لها كلها قيمة واحدة أمام الله. النفس البسيطة لا تتشكى أبداً لأنها لا ترى من أو ما يمكنها أن تتشكى منه كل شيء فائض لديها والله يأتيها مع كل برهة مغدقاً نعمه غير المحدودة.

أنها لا تتشكى من أن الوقت ينقصها لتتفرغ للصلاة فكل شيء بالنسبة إليها هو وسيلة لتتحد بالله. أنها لا تتذمر من المعاكسة التي تعترضها ظلاماً، فهذه المعاكسة تدخيل في مقاصد الله. أنها لا تلوم الآخرين لا تنتقد مسلهم لأنها لا تعرف نياتهم. أنها تكتفي بتتيمم واجبها من غير أن تتبغى بإفراط نجاح جهودها.

كثيراً ما تضطرب أفضل النفوس عندما ترى عقم عملها الذي أقدمت عليه بخلوص نية لمجد الله، فتتحدس رعيها ذا الإخفاق ولا تتعزى إلا بصعوبة أما النفس الروحية حقاً فلا تقع في هذا الانحراف، لأنها تعرف أن الله كثير راء ما يريد الجهد والتعب لا النجاح. فلا نغتمن لإخفاق يبدو معاكساً لمقاصد الله، فأفكار الله أوسع من أفكارنا، وهي تشمل الخليقة كلها وتمتد إلى الأبد.

لعمري أن حياة كهذه لمليئة بمفاتيح إلهية! فاشرعي يا نفسي منذ الآن في أن تحيبيها، لقد قدمت ذاتك لله واستسلمت له محبة فيه، فراقبي الآن دليلك خلال واجبات النهار وحوادثه وأتعبه كلها. اكتفي بان تحبيه تقبلي ما يعطيك إياه. أتممي ما يأمرك به، احملني الصلبان التي يرسلها لك، ثم اتركي له الحرية ليصنع فيك وبك كل ما يريد. فقداستك مضمونة، وكذلك سعادتك.

يا مريم الأم الحنون، إنني أحبك بقدر ما يستطيع قلبي المحبة وأريد أن أبقى قربك دائماً كييعقوب قرب أمه. فيا رفيقتي السماوية علميني سر إرضاء أبي حتى يباركني ويقدسني.

المقالة السابعة

بذل الذات والهفوات العارضة

إن الـ نفس قلـ يلة الخبرة تظن أنها تتحرر من كل خطيئة، منذ بذل ذاتها لله، فتغضب أو تقنط عندما تلحظ ضعفها، لذلك يجب أن يجمع بين ممارسة بذل الذات الإيجابية وما يمكن أن يسمى "ممارسته السلبية".

لا جُـ رم أنه ليس هنالك شيء معاكس لبذل الذات أكثر من الخطيئة فإن الخطيئة هي محبة الذات غير المرتبة، هي الأثانية، ومع ذلك فإن النفوس التي ألقت بذل ذاتها ليسوع تقترف الهفوات. ولكن التناقض هنا ليس إلا ظاهرياً، وهذا ما يهم أن تفهمه لسلام النفس.

هـ ناك، كما يقول القديس أوغسطينوس، حبان يتنازعان السلطان على النفس: حب الله وحب الذات. وحب الله حتى الازدياء بالذات. هو الحب الكامل أما حب الذات المفرط حتى كره الله فهو الخطيئة المميتة هو تهديم عرش الله في القلب.

وعندما يسود الله في النفس فهو قادر على سحق عدوه حب الذات. لكنه يكتفي بأن يقوى عليه ويتركه خاضعاً لسلطانه. فالله لا يريد أن يختفي حب الذات دفعة واحدة من القلب الذي استولى عليه هو بل يسمح له بان يبقى عائشاً فيه ولكن في حالة عبودية ومذلة. والله يتصرف هكذا لأسباب كثيرة يريدنا أن نتبين بعضها. انه لمفيد أن يسكن العدو بجانب أولاد الله.

فالعـ دو المهـد والمستعد دائماً للهجوم يضطر النفس إلى السهر والنفس تغفر على إهمال رخي، إن لم يكن لديها جهاد تقوم به. وعندئذ أين تكون قوة الفضيلة؟ ولكن ما دام هنالك حرب فالنفس تضعف أحياناً وعندئذ تقع في الخطيئة فالخطيئة هي الشرط اللازم لهذه المعركة؟ الدائمة التي جعل الله الإنسان فيها على هذه الأرض. لأن الله إذا أراد لنا العراك وجب أن يسمح بالسقوط، ومجده يكون بأن يستخلص الخير من الشر ولا يدع للعدو إلا انتصارات وقتية عابرة.

ومن جهة ثانية، فالسماح بوقوع الشر هو، في مقاصد الله، أفضل صيانة للتواضع. فالنفس البشرية تنخدع كثيراً في أمر استحقاقها الشخصي وما عدا القديسين لا يعدل أحد في هذا الصدد فالنفس بحاجة إلى اختبارات يومية متكررة، وهي لا تكف إلا مع الزمن عن أن تنسب إلى ذاتها استحقاقاً ليس لها. ومع ذلك يجب أن يذكرها الله في كل برهة بعجزها التام عن بلوغ الخير بدون نعمته.

تحت ظواهر عدم الكمال هذه يخفي الله الكمالات الحقيقية التي يبثها في النفس، والتي ينميها فيها كل يوم تارة عن غير علم منها وطوراً بمشاركتها السخية.

وعلى كل حال، لا تتأصل هذه الهفوات في النفس التي بذلت ذاتها لله. بل كلما نبتت الأعشاب الرديئة اقتلعت، أما النبتة الصالحة فتكبر وتنمو بلا توقف.

وهكذا تمدد كل يوم بالانسحاق والتوبة، كل هذه الهفوات الصغيرة، التي يسامحنا الله عنها أيضاً فتتأصل في المحبة وبذل الذات ويغمرنا فيض من النعمة الإلهية.

المقالة الثامنة

العقبة الكبرى في حياة بذل الذات لله

إن في حياة البذل عقبة كبرى تصطمم بها بعض النفوس وتغرق وهذه العقبة هي زهو خفي، كبرياء مقنع تعمي النفس وتجعلها تبالغ في تقدير صلاحها، مما يولد فيها الغيظ والحنق بعد سقطاتها.

أه ما أخطب هذا السم! انه يمتزج بكياننا وينتشر في الجسم كله. هذا السم لا يقتل عادة، بل يضعف، وينهك. فتحس النفس التي يجتاحها بأنها تبذل، لكنها لا تعرف السبب.

وتمر السنين الأولى من الحياة الروحية في حرارة كبيرة. وتحاول النفس بحماسة تحطيم عيوبها واكتساب الفضائل، وتكثر من تشديد العزم وامتحان القلب وتذكي حماسها بالتفكير في أنها ستصبح بعد مدة كاملة ويداخليتها وتمر الأشهر. وتتابع السنين وتبقى القرارات عينها والجهود عينها ويبقى الضعف عينه. ويتكون في قراره النفس مع الزمن وحزن وضعف ثقة بالله، وتفقد النفس رجاءها في الوصول إلى القداسة. وتظهر لها هفواتها المتكررة كعقبة كؤود تحول دون بلوغها الكمال ويظهر لها ما نوته من بلوغ القداسة في شبابها الروحي كأحلام بعيدة: لقد تبددت أحلامها وأضحت تقول: إن القداسة ليست لأمثالي.

إنك لمخطئة أيتها النفس المسكينة. لقد جعلت القداسة لك، ولا ينقصك، لتكوني كاملة إلا شيء واحد: أن تعرفي ذاتك أمام الله كما أنت. انك في كل حين، ضعيفة جداً عرضة للخبيثة فاعترفي بهذا بكل رضى، إنك عاجزة عن كل خير فأقري بهذا ببساطة أمام الله. ستخطئين كل يوم مع أنك تقصدين بإخلاص وصدق ألا تعودى إلى السقوط فارتضى بما قسم لك بشجاعة.

أنه لمن أعظم أسرار الحياة الروحية ألا تضطرب النفس بعد سقطاتها لكن هذا سر لا يستطيع غير الله أن يبثه في النفس فهو يفترض فيها، من جهة، معرفة فائقة لضعفه الإرادة وإفراط تقلب الفكر البشرى. ويفترض فيها، من جهة أخرى، خبرة شخصية عميقة لصلاح الله الذي لا يكل، ولحنانه نحو خليقته الصغيرة الذي لا ينفد. أن في يسوع من الصلاح والحنان والتنازل ما لا يتيح لأي ضعف ولأية خبيثة أن تحوله عن نفس مخلصه.

كلنا نسير على هذه الأرض كمنفيين، نحو وطننا السماوي، والطريق طويلة مملدة. فهل هناك من عجب يشل العياء أحياناً سيرنا أو أن يصرعنا في الطريق؟ وأحياناً تجذب الأشياء التي يصادفها نظرننا طوال الطريق انتباهنا كثيراً. وتلهنا عن سيرنا إلى الأمام، مع ذلك لا نتوقف أبداً عن السير، ولا تراودنا أبداً فكرة الرجوع إلى الخلف.

كان طوبيا الفتى، في سيره إلى بلاد الماديين، يتوقف أحياناً في الطريق فيستريح ويروى عطشه على ضفاف البحر التي يمر لها. ولعل هذه الاستراحات قد أخرته طويلاً في سيره، وعرضته للأخطار، لكن الملاك كان ساهراً يتدارك قلة تبصره.

كذلك يسعد الله النفوس الطيبة. انه يتفحص أعماق القلوب ويرى فيها لإرادة الصادقة بأن تكون النفس له، فيغفر لها، راضياً، هفواتها العارضة نتيجة ضعفها.

إن كبرياءنا تحول دون فهمنا كيف يمكن للإرادة أن تكون صادقة في عودها لله بأن تكون أمينة له ثم تقع بعد برهة في خطيئتها السابقة.

وهذه الكبرياء تعمينا أيضاً عن الفهم أن تلك الوعود وتلك السقطات قد تتكرر حتى آخر حياتنا دون أن
تنقص من رحمة يسوع وإشفاقه علي ضعف البشر.

يا يسوع ما أقل معرفتنا لسر تقديس النفوس! نحن نظن أن لنا فيه قسطاً وافراً! لكننا، وا أسفاه، لا
نسهم فيه إلا باعترافنا بتقلبنا الدائم، من غير أن نتعب أبداً من سقطاتنا. وأما الباقي فهو عمالك.

الفصل الثاني ممارسة التسليم وقت الشواغل المختلفة

المقالة الأولى

ممارسة بذل الذات وقت الصلاة

يا نفسي، أتبعي الآن يسوع في مختلف الأفعال اليومية، فهو يعلمك أن تتمميها بطريقة مقدسة. أدخل في أثره محراب الصلاة السري فتشربي فيه كؤوس المحبة مترعة.

يا إله الجلال! كيف تستطيع خليقة هزيلة أن تدنو منك، وأن تتحدث معك في خلوة مقدسة قلباً إلى قلب، وان تحس إنك تريح ناظريك في ناظريها، الست أنت ذلك الإله العظيم الذي تحني الملائكة أمامه باحترام وهي تستر وجوهها، ويجثوا أمامه قديسو السماء وهم يرتجفون ويرددون: قدوس قدوس، قدوس هو السيد رب القوات؟

كيف أستطيع أنا الرماد والتراب أن كلم سيدي والهي؟ أن اليهود لم يكونوا يجراءون أن يرفعوا، في الصد حراء، عيونهم نحو الله، بل كانوا ينتدبون موسى ليتوسل من أجلهم، وفي تلك الأثناء كانوا ينتظرون عند أسفل جبل سيناء وهم يرتجفون ويكادون يموتون رعدة.

وبعد هذا أجرؤ أنا على الدخول إلى قدسك والمثول أمام عرشك، ومخاطبتك بدالة؟ فهل خفت لمعان جلالك أو تساهلت بحقوقك السامية؟

- كلا: فإنك إله الأبد، ملك الملوك، إله الأجناد! السماوية، وعلى كل خليقة أن تعبدك معفرة رأسها في التراب.

فعندما تمثلين أمام إلهك. لا تنسى، يا نفسي! واجب الاحترام والخضوع هذا. وأعلمي أيضاً أن الله لا حد لصلاحه.

إن اس تير لم ا م ثلت أمام احشويروش الجالس على عرشه في بهاء جلاله الملكي، أخذت ترتجف احتاراماً وكاد يغمى عليها! لكن الملك الذي تسلط عليه جمالها مد إليها صولجانه الذهبي وقربها إليه بلطف ثم قال لها بمحبة: إن الأمر الذي يخضع له الآخرون لا تخضعين أنت له.

فيا لامتياز النفس البسيطة: أنها تدخل مساكن الملك باحترام عظيم ولا شك، ولكن بجرأة الأطفال. هي تعرف امتيازها وتستطيع أن تدنو منه وان تحدثه بألفة وأن تجلس عند قدميه وان تحبه.

ولكن كيف يمكن التحدث مع هذا الضرر السامي؟ إن النفس لا تعرف إلا شيئاً واحداً وليس لديها سوى فعل واحد، هو بذل الذات. كيف نقوم بكل ما تقضيه الصلاة كيف نتبع الطرق التي رسمها المعلمون ونعرف الدرجات ونميز الفوارق، ونتجنب العثرات ونبلغ بالأفكار والعواطف والمقاصد إلى قياساتها الدقيقة؟

- لا تخافي شيئاً يا نفسي فأنت تعبرين بفضل بساطتك حيث تتوقف نفوس أخرى مرتبكة.

أن في الصلاة عنصرًا مشتركًا بين جميع النفوس، وفي تناول كل الطاقات، ويتفق مع كل الميول. وه ذا العنصر هو جوهر الصلاة انه ليس إلا اتحاد الإرادة بالله. وهذا الاتحاد يتم بالمحبة الذي يسلم الذي الإنسان بكامله. هكذا تصلين يا نفسي طيلة النهار من غير أن تعلمي ذلك. إذ انك ببذل ذاتك باستمرار وانتباه تص بحين وكأذ ك متأصلة في جو الصلاة والصلاة تسمى تنفسك وحياتك، فهل أنت بحاجة لتتعلمي التنفس والحياء؟

فما هو إذن سر الصلاة، وما هي طريقتها؟- إن سر الصلاة هو أن تذلي ذاتك لله بمحبة، هو أن تسلمي روحك وجسمك لإرادة الإلهية ولكل أوامرها لك. وطريقة الصلاة هي أن تجددى هذه المحبة باستمرار، وان تجعلها أكثر إخلاصًا وأكثر حرارة وأكثر طواعية وان تدخلها في حياتك وآلامك وأفراحك كلها. فمتى تم لك ذلك تم أول الواجبات وأهمها.

فإذا فهمنا الصلاة على هذا النحو أصبحت بسيطة وعميقة. هي بسيطة كالإله الذي تحبينه، وعميقة الغور كمحيط المحبة اللامتناهي الذي تغوصين فيه، هي واسعة وتفتح لك أفقًا لا حد لها، لأن الله يسر بأن يبني على هذا الأساس البسيط.

لقد أدت عملك الرئيسي والله يبدأ الآن عمله. أنت تطلين طريقة، والله سيدلك عليها، فلا يستطيع إنسان أن يعلم النفوس طريقتها في الصلاة لأن كل واحدة تتبع طريقة خاصة بوحى الله وقيادته.

إن المرشد دين الروحانيين يسر تطيعون أن يرسموا بعض المعالم، ويقترحوا بعض القواعد، ويرسموا بعض السبل. وهذا لعمري عمل مفيد ولا شك، لكنه يخلو من التدقيق والوضوح فلذلك هو عمل الله. فهو الذي يعلم النفس، في خفايا القلب، والنفس المستسلمة له تسمع صوته.

أه! ما أهم أن يكون المرء طيعًا في يد الله ولن يتقدم إلى الصلاة متفرغًا من كل تعلق بمفاهيم البشر.

المقالة الثانية

إن الله يقود بذاته النفس البسيطة

في مسالك الصلاة

إن النفس التي تمثل أمام الله في الصلاة يجب أن تغور في لجة الاحترام أمام جلاله السامي، ثم ترتمي بين ذراعيه بجسارة بنوية وتفيض له الحب. فجوهر الصلاة العقلية هو المحبة التي تسلم النفس لله ذلك ما يطلبه السيد من كل نفس.

والنفس تداول أن تثبت محبتها بهدوء وبساطة من غير إجهاد عقلي أو عناء. وبعدها تجعل ذاتها تحت التأثير الإلهي قدر استطاعتها، مصفية إلى الله ومتوقفة بسلام تحت نظره. مكررة حبها أحيانًا بأكثر جلاء أو تمتمة، إن شاءت بشفتيها، أو تصعده من أعماق قلبها، وعند كل غفلة أو تشتت فكر أو تجربة تجدد بذل ذاتها لله بإثبات محبة جديدة. هذا ما يطلبه الله دائمًا من النفس في الصلاة. أما إذا تطلب منها أكثر، كما يحدث غالبًا فهو يقول لها ذلك ويفهمها إياه. إن لديه طرقًا كثيرة لمخاطبتها والتجلي لها، وهذه الطرق كلها فعالة وناجحة. لكنما يجب أن تستجمع النفس لأفكارها وأن تستسلم وتصغي، وأن تكون طيعة.

إن الله قد أعد لكل نفس طريقته للصلاة، وله وحده أن ينظم سبل الحوار معه. فهو لا يرتبط بطريقة ولا يتقيد بأية قاعدة ثابتة.

إنه السديد، يمسك بيده كل النفوس ويحركها ويوجهها ويكيفها كما يشاء فعله عجيب قلما يلحظ أو يدرك، لكنه أبدًا صالح. يسمح أحيانًا بأن يرى فعله هذا، ويساعد هو نفسه على اكتشافه، حتى أنه يأمر بوصفه وعرضه على تقدير الجميع واحترامهم وقد ترك بعض القديسين والقديسات وصفًا جميلًا لفعل الله فيهم، لكن هذه الحالات نادرة. فقد قضى تدبير الله أن يرجئ رؤيتنا لعجائبه في النفوس حتى تنتقل إلى ملكوته السماوي، ومن الـ تطاول أن يريد المرء معرفة أعمال الله وسبر غورها في هذه الحياة. وكل نفس طيبة ترى في ذاتها فعل الله بصورة كافية لاتباعه، وغير كافية لإدراك أسرارها..

وقد يدعو الله النفس أحيانًا إلى التأمل فيغمر عقلها بنور حول إحدى الحقائق الكبرى ويدعوها لتزداد فحسًا لها وتكون هذه الحقيقة إحدى أسرار الإيمان. كالقربان المقدس أو الآلام، أو طفولة الإله المتأنس أو أحد الـ وادث الفريدة من حياة يسوع، أو تكون إحدى صفات الله الحسنى كصلاحه الفائق، أو قدرته، أو حضوره. في كل مكان، أو كماله السامي الطلق، وقد تكون أحد الأهداف الأخيرة، أو إحدى الحقائق الأبدية، أو شركة القديسين، وإحدى الفضائل كمحبة الله والامتثال لمشيئته الإلهية. فتقف النفس طائعة ناظرة ومفكرة.

وإن شعرت بميل إلى التأمل فهي تكتشف معاني جديدة وأفاقًا أوسع ومصادفات مذهشة وانسجامات عجيبة. وهذه علامة على أن الله يدعوها للمزيد من التوقف والتعمق في التأمل، أنه يريد أن يغرس في النفس اعتقادات عميقة واعية يتولى تثبيتها فيما بعد بنور فجائي ورؤية حدسية.

وأحيانًا لا يوحى الله إلى النفس بميل إلى التأمل فتعجز عن تركيز فكرها. والحقائق الأكثر وضوحًا وثبوتًا لا تجد لها في العقل أي صدى. ويولد التأمل في النفس ضجرًا طغيًا، فيما يبقى القلب محبًا. إن الله يقود هذه النفس، وهو الذي يوحى إليها بالمشاعر الملتهبة، وعليها أن تطيع وتتبع الجاذب الإلهي.

وأحيانًا لا توجد العواطف للنفس شيئًا ولا يستميلها دفق قلب كله لهب. ويظهر لها التأمل من جهة أخرى تم رينًا مملًا وعقيمًا. فتؤثر بالعكس أن تغوص في العزلة وأن تبقى فيها صامته بقرب الله. فيجتاحها غالبًا بالانفعال العميق لكنه هادئ. هي تحس بالغبطة بقرب الله مع كونها تكاد لا تخاطبه فحضرة هذا الكائن اللامدود تغمرها وتجعلها في حالة هيبة عميقة. بيد أن محبته الفائقة تقمها بهجة فترتمي في حضن الله كما في لجة لا قرار لها.

كل هذا يتم ببساطة في أعماق النفس بحركة تلقائية لا بكلمات صريحة. فتبقى النفس تحت تأثير لقائهم بالله ومنذئذ تصبح أعمالها كأنها معطرة بطيب إلهي فتتمنى لو يدوم هذا الاتحاد العذب الصامت إلى الأبد. لكن الله أفكارًا أخرى، فتعقب فترات اللقاء الإلهي أوقات برودة وجفاء وتظن النفس أن الله يرذلها فتذوب أسى وتئن.

وهكذا يقدود الله النفس عبر التقلبات والتطورات حتى القمة حيث تنفتح أمامها من جديد آفاق أخرى تغريها على أن تحث الخطى.

ولكن ماذا ينفع وصف كل هذا يا يسوع؟ فكل نفس طيبة هي عالم من المعجزات، وكل واحدة تتبع طريقًا لها لا يعرفه أحد سواك وأنت ترسمه وحدك. وأنا لا أريد إلا أن كون طبعًا أصغى باحترام إلى صوتك،

العذب، أجد رى وراءك، فيكون سبيلي أن احبك في كل شيء وعلى الدوام، وأن استسلم لهديك وأن أسألك بلا انقطاع مزيداً من الحب.

يام ريم العروس المقدسة، الحمامة السرية، علميني أن أقدم لسيدي والهي سجوداً مقروناً بالمحبة الفائقة.

المقالة الثالثة

ممارسة بذل لذلت في التمارين الروحية

إن النفوس النقية لا تكتفي بالصلاة، فلديها مجموعة تمارين روحية لتنمية النشاط وتغذية التفاني، وهذه تؤلف طعام النفس الروحي. وأهمها القداس الإلهي والمناولة والمطالعة الروحية وزيارة بيوت الله وصلاة اسم يسوع والاعتراف. ولا يسوغ الإقلال من أهمية هذه التمارين وغيرها. ولا الغلو في مدى طاقتها. فالله يقود النفوس ويكملها بحسب مشيئته، ويستعمل لذلك طرقاً متنوعة لا عد لها، تحل التمارين التقوية بينها، عادة، محلاً مرموقاً ولكنه مع ذلك يهمل هذه التمارين أحياناً ويستغنى عنها.

وواجب النفس هو أن تتبين ما هي هذه المشيئة الإلهية بالنسبة إليها وأن تتبعها بأمانة حالماً تعرفها. فإن كانت تعيش في دير، فيما بين غزارة الوسائل الخارجية المقدسة توجب عليها أن تعني في استعمالها. وأن كانت تعيش في العالم وفي زحمة المشاغل، أو كانت تعيل أسرة وتهتم بتحصيل خبزها اليومي، فهي لا تستطيع أن تتقيد بتلك التمارين مثل تلك الدقة أو النسبة كما أنها غير ملزمة بذلك. فالله الغني بالرحمة والرافة يعطيها بطرق أخرى النعم المنوطة بالتمارين الروحية.

من تراه يصدق أن النفوس التي تتعم بفيض من الوسائل الروحية، قد تجد في هذه الغزارة عينها عقبة تحول دون بلوغها الكمال؟ ومع ذلك فهذا يحدث في الواقع.

مسكينة الطبيعة البشرية! إن تركت لحكمها الذاتي اصطدمت بكل حجارة الطريق. فمتى تراها تدرك أن السير في طريق الكمال سيراً فعالاً لا يكون بقوة الإنسان وحده، بل بسيره مستنداً إلى ذراع الله.

هناك نفوس تريد أن تصل إلى الهدف بسرعة، فهذا ولا شك شوق نبيل. ولهذه الغاية تكثر من التمارين الروحية والمطالعات والصلوات والأحاديث التقوية. لكن كل شيء لا يسير بحسب مشتهاها. فقراءة الكتب الروحية تثقل ذهنها بدلاً من أن تنير. والأحاديث الروحية تترك في قرارة النفس حزناً غامضاً وفراغاً أليماً. والصلوات الكثيرة تورث: الضجر والنفور، فأين هو الخلل، لقد كان، وأسفاه للإرادة الخاصة نصيبها في هذا الاندفاع! وكانت هذه النفوس تروم أن تستيق الله كالولد الذي يترك يد أمه ويسير وحده في الطريق، فلا عجب إذا وقع أصابته الجراح.

ليس من تمرين روحي يفيد النفس إن كان خارجاً عن ترتيب الله. فاهتمام النفس الدائم يجب أن يكون بأن تسلم ذاتها كاملة لله، ثم بأن تتخذ الوسائل التي يعطيها الله واحدة فواحدة، بالشكل الذي يحدده وفي الظروف التي يحيطها بها، وفي الوقت الذي يعينه لها. أما محاولة التمسك بها عندما نفقدها بأمر الله، والرغبة في إطالة

زم نها والإكثار منها والتشدد في تميمها خلافاً لإرادة الله، فهذا مما يعاكس الترتيب الإلهي المعد لكل نفس منذ الأزل.

ف يجب إذن أن تم ارس النفس تمارينها الروحية بقلب متفرغ جداً، وأن تقصى عنها كل تسرع وكل تعطش غير معتدل، كما تبعد كل جبن وكسل وملل.

يعتقد يوحنا الصليبي أن كثيراً من النفوس النقية تغذيها نقيصة سماها "الشراهة الروحية"، فمن يستطيع تخطئة مشورة هنا القديس والمعلم الخبير في إرشاد النفوس؟ إن الإفراط وعدم الاعتدال يذيب الصحة الجسدية لأنه نقص في التسلط على الذات وضعف في الإرادة التي لا تعرف أن تردع شهوات الحواس الجامحة، وهذه النقيصة نفسها، على الصعيد الروحي، تدمر صحة النفس. إنها جوع وعطش مفرطان، ودليل ضعف في التسلط على الذات وتعلق زائد بأرائنا الشخصية.

إن النفس التي ابتليت بهذه النقيصة تظهر بوضوح أنها لم تتفهم بعد تعليم بذل الذات المعزي، أنها تريد ولا شك أن تستسلم لله ولعنايته. ولكن على طريقته هي وفي الزمن الذي تحدده هي، ومع التحفظات التي تضربها هي، وكأنها تريد أن ترشد الله إلى الوسائل الواجب اتخاذها وتهيئ له ما من شأنه أن يعجل في عملية تقديسها.

مس كينة ه ذه النفس! أنها تتحمل مشاق لا جدوى فيها، وأسوأ من هذا فهي بتسرعها غير المعتدل، تعرقل عمل الله.

المقالة الرابعة

إن النفس المستسلمة لا تهتم في

تمارينها إلا لترتيب الله

تعلمي يا نفسي أن تتمي تمارينك الروحية بكل هدوء وسلام لا تحذفي شيئاً مما يفرضه عليك الواجب ولا مما يطلبه الله منك، ولكن لا تتقلي عاتقك بممارسات مفرطة.

أنت ابنة الله وهو يفهم جيداً لغة القلب. فقولي له ووردي أنك له إلى الأبد فذلك ما يبتغيه منك. ثم أدى تمارينك بالدقة والكمال اللذين تتمين بهما كل أعمالك. وبعد هذا كوني في سلام فالله يتولى أمر كمالك يوم تضحين بكل شيء لإرضائه.

لا تقوم في بقراءات روحية إلا بحسب أمر الله وفي الزمن الذي يحدده. فإن هذه القراءات خارجاً عن مشيئة الله لا تولد إلا الاضطراب في النفس وتضعها في الظلمة بدل أن تثيرها، وتلبكها بدل أن تساعدنا وتقلقها بدل أن تطمئنها.

أذ له لم ين الضروري ألا تكون للمرء أية إرادة خاصة وأية مبادرة غير التي تدفعنا لنكون حقاً لله بلا ترزع في جميع الحوادث في النجاح والإخفاق، في الهناء والشقاء في الظلام والنور، في غزارة الوسائل الروحية كما في شحها.

فالنفس التي صارت إلى مثل هذه البساطة ليست بعد قابلة للإغواء والضلال لأنها تتمسك فقط بمشيئة الله. هي دومًا في راحة دومًا غنية لا تتشكي من أي حرمان روحي لأنها لا تعرفه أبدًا. أنها تعيش في فيض خيرات إلهها الذي يملؤها بمقدار استيعابها في كل لحظة من لحظات النهار. وكالإناء الذي ملأه. المحيط لم يعد لها ما تشتهييه بعد.

أيها المملء ما أقل معرفتنا بك وتقديرنا لك! إن النفوس تهلك من كثرة رغائبها المعاكسة لترتيب الله، وتذيب ذاتها في جهود باطلة وشكاوى مرة.

فبعضها يطلب بإصرار مزيدًا من المناولات والاماتات. والصلوات. وبعضها يتوق بقلق إلى العزلة والخلوة والصمت وغيرها يشكو من أعباء المشاغل وقلة الوقت والحاجة إلى مرشدين روحيين. وكلها تقريبًا رغائب تعرضها أو حسرات وهموم تديبها.

أما أنا يا يسوع، فأريد أن اسر بك وحدك وبمشيئتك الإلهية. إنني لا أرغب في شيء ولا أرفض شيئًا ولا أطلب إلا ما علمتني أن أطلبه وابتغيه: "اليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك لتكون مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض". هذه هي حدود رغباتي لأنني أعرف أن الخير الوحيد المشتهي على هذه الأرض وفي الأبدية هو أن نكون لك.

أجل، إنني أتوق ولا شك أن أتناول جسدك، وأن أقتنيك في قلبي، وأن استسلم لمحبتك لي وإنعامك علي، لكنني لا أتوق إلى هذا إلا إذا كانت فيه مسرتك. وإن كان على أن أعيش في القفر كالنساك من غير أن أسعد بتناولك كل يوم، فقد أموت من التحول والشوق، لكن لن تغتلب أية شكوى من شفتي يا يسوع، ولن يتحسر قلبي على شيء لأنني أعرف أنك أنت ارتضيت لي ذلك.

وأنا أتوق أيضًا بلا شك يا يسوع، إلى العزلة والخلوة فهي تجذبني وأشعر بك فيها أقرب إلى وأكثر حبا وألفة، وتغمرنني فيها عظمتك بنصيب أوفر حتى يجيش قلبي تهليلًا ولكن إن أردت أن تبقيني في ضجيج الأعمال ترهقني المشاغل والارتباكات والمكاهة المختلفة، فأنا أرتضيها طائعًا يا إلهي لأنني "أنا الذي هي التي تمسكني فيها".

سأكون سعيدًا ولا شك عندما تضع عنايتك في طريقي نفسيًا تحببك أنت وحدك وتقودني نحوك وتعلمني حبك وتصلح نقائصي فأشكر لك أيها السيد هذه النعمة لأنني أعرف أنه ليس أثنى من مرشد خبير وأب محب. ولكن إن أبعدته عنى واجب، أو فرقتني عنه مقتضيات مجدك فلن أتشكى لأنني أعرف يا رب أنك أنت وحدك تكفيني وانك تقيم عند الحاجة من الحجارة رجالاً قادرين على مساعدتي وتعليمي محبتك.

يا يسوع إنني أتعلق بك وحدك بمحبة حارة واستسلام سخي.

المقالة الخامسة

النفس المستسلمة لله في علاقاتها مع العالم

على النفس التي بذلت ذاتها لله أن تعيش في هذا العالم على طريقة البشر. فإله لم يعطها طبيعة ملائكية لا يشغلها سوى التفكير فيه ومحبهه، بل هي تعيش ضمن عائلة وجماعة رهبانية أو مجتمع، وهنا

الكثير من علاقات الصداقة والمنفعة واللياقة والقرابة تربطها وتشغلها. هذا هو النظام الذي وضعه الله ولا سبيل إلى مقاومته. فالنفس لا تستطيع أن تتخلص من عبء هذه العلاقات إلا إذا توارت في مغارة منعزلة لا يصحبها في عيشتها الجديدة إلا وحوش القفر.

ومن هذه العلاقات ما هو مستحب وشريف يكون للنفس بمثابة لهو برئٍ وتسلية مفيدة ولازمة. ومنها ما هو ودي حميم كالبلسم للقلب الجريح والحافز للعزيمة الواهنة والمعزي للنفس الكسيرة، ومنها ما هو غير ذي بال لأن الدافع إليه هو اللياقات والمصالح: وهي علاقات لا تدوم طويلاً لأنها غير ثابتة كالسبب الذي أوجد دها. ومنها ما يجبر المرء عليه وتمليه الحاجة أو الخضوع أو الخوف وتقرضه الطبيعة أو المركز أو الأعمال أو البيئة.

إن كثرة هذه العلاقات وتنوعها يؤلفان بالنسبة للنفس المتعاقلة عقبة كبرى لبلوغ القداسة.

فهي تمكن تلك العلاقات من أن تحيط بها كالشباك فتفتقد فيها حريتها وانعتاق قلبها واستقرارها، أي لما أساس كل حياة كاملة.

فتارة ترضيها هذه العلاقات وتفتنها وتتركها غافلة على حافة الهاوية، وطوراً تشغلها وتزعجها وتقلقها وتسد لبها وقتها وراحتها وأحياناً أخرى تعاكسها وتحزنها. وتثير فيها الحسد والبغض وتبعد أفكارها عن إله السلام.

فكيف تستطيع أن تتبع يسوع في صحراء قلبها وتجلس هادئة عند قدمي معلمها وهي متعبة مأسورة تتجاذبها الأهواء؟

فعلينا إذن أن نرتب علاقاتنا بحكمة مع الآخرين. إن النفس التي استسلمت بسخاء ليسوع لا تحب العالم ولا تخشى ان تقادته أو تأبه لسخريته، كما أنها تعلق برفقة جناح على تعبير العالم لها أو عدم رضاه. وهكذا، إذ تتيقن أنها تعمل مشيئة الله، لا تألو جهداً في السيطرة على عواطفها والاحتفاظ بهدوء فكرها واتزان تصرفاتها.

إن الـ نفس الروحانية حقاً لا تكون أبداً أسيرة أي مخلوق مهما كانت صلتنا به مستحبة ومغرية ونقية. أنها لا تسلم ذاته بكاملها إلا ليسوع. فهي مسكن الله، خدر يسوع. وهكذا فإن القلب الذي هو لله بكامله يملؤه الله على الدوام. يملؤه يسوع ويفيض منه. ومن ثم ينسكب هذا الفيض على الخلائق المحيطة به.

ومدبة مثل هذه النفس البسيطة للخلائق لا تعادلها محبة، أن في نقائها أو في ثباتها. فهي خالصة من كل أنانية لأنها من فيض حبه ليسوع. هله المحبة غير معرضة للتغيرات ولا تخضع للأهواء وتقلبات المزاج. أنها لا تتأثر بمرزايا الناس وجمالهم واستحقاقهم وصلاتهم فإن أساسها في الله وحده. إنها تستغرب الخيانة والعقوق وقلة الأمانة لكنها لا تقنط لأنها من الله تتبع وتتدفق.

إن الـ نفس الروحانية لا تسعى لاكتساب تقدير أي خليفة، إذ هي تعرف جيداً أن لا حق لها في ذلك فيسوع وحده هو سيد النفوس وملكها لأوحد الذي يحق له كل حب ومجد.

ومن جهة أخرى لا تجهل هذه النفس أن كل مجد بشري زائل وقريب العطب والخذلان. فقد برهنت لها الخبرة إن ما من خليفة تستطيع أن ترضى القلب طويلاً أو ترى ظمأه إلى المحبة، فالإنسان يشعر بأنه مخلوق لغير المحدود.

المقالة السادسة

النفس المبذولة لله تتمتع بحرية مقدسة

هكذا تعيش النفس طليقة حرة في خضم عالم من العلاقات المختلفة. فهي تسيطر عليها وتقودها وتحدد نوعها وترتب أوقاتها وشكلها. هي تحس بأنها فوق الأمور المحيطة بها والتي تحاول أن تغطي عليها. فبذل ذاتها المتواصل ليسوع يقف حاجزاً منيعاً أمام هذه المحاولة.

ويظن العالم أحياناً أنه قد اجتاز هذا الحاجز. ولكن بينما هو يتصور أنه قد امتلك النفس وجرها إلى تياره. إذا ببسوع يدعها وإليها داخلها. إلي هذا الجزء الصميم الذي لا يستطيع العالم ولوجه، في فصلها عن اضطراب الخارج ويعيدها إلى هدوئها المعتاد. لا شيء يمكن أن يسئ إلى هذه النفس. فكما أنه ليس باستطاعة أي حب أو عطف بشري أن يستعبدها كذلك لا يقدر أي عنف أن يخيفها ولا أية مصلحة أن تقيدها.

ما أروع رؤية نفس كهذه تعيش هادئة وسط عالم مضطرب معذب! أنها كسنديانة جبارة وسط حرج تكاد الريح لا تحرك قممها الجبارة، بل تبقى ثابتة هادئة بينما ينحني كل شيء حولها ويقلع ويكسر. وعندما تحمل زوبعة الأشغال العالمية النفوس الصغيرة في التشتت الاضطراب تصمد النفس الروحانية غير متزعزعة وتظل جبهتها مرتفعة بفخر إلى السماء وقلبها متأصل في يسوع.

أه! ما أعظم سر الاحتفاظ بضبط الذات وامتلاك القلب والسيطرة على العلاقات بدل أن يدعها المرء تطغى عليه وتقوده! ما من أحد يستطيع التوصل إلى هذه السيطرة على الذات إلا الذي تخلص عن كل منفعة شخصية زمنية وعن كل تقدير بشري وكل اهتمام بالمستقبل.

علمني هذا السر الإلهي يا يسوع! اربطني بك بقوة حتى لا تستطيع أية خليقة أن تفصلني عنك. أنا أشعر بأنني ضعيف كل الضعف. كل شيء يؤثر فيّ: نظرة من صديق، كلمة مؤلمة، ابتسامة. كل شيء يثير شجوناً ويعكر صفوي. إن المصائب تهدني والهموم توهني والألم يثير أعصابي والمناقضة تغيظني. بادرة ودية تأسرني وحرمانها يشقيني. كلمة طيبة تنهضني والمدح يستهويني والاستحسان ينشطني. وهكذا فأنا خاضع لانفعالاتي.

يا يسوعي، اجعل في ملكك المطلق السامي. واطرد من قلبي أولئك الغرباء والباعاء، والسيارفة الذين يحولون مقدسك إلى سوق عامة. اعد إلى حرية أبناء الله التي جئت بها إلى الأرض. اجعلني غير خاضع لأحد في هذا العالم إلا لك ولكنيستك المقسمة ولا يكن للحياء البشري أي سلطان عليّ.

هب لي ألابالي بأمور الدنيا ولا أتأثر بالاستحسان أو النقد وألا يلهيني عنك تعدد واجباتي وعلاقاتي.

المقالة السابعة

بذل الذات في عمرة الأشغال

لا تمضى كل النفوس حياتها في دير محاط بسور، يحميها من تأثير العالم سياج النذور الرهبانية، بل

يعيش أكثرها في العالم فيما بين تيارات الأعمال، منهمكاً في نضال لا يتوقف لتحقيق خبزه اليومي. إن الشواغل الخارجية تسترعى انتباهها كله. وهذه الشواغل التي تفرضها الطاعة أو ترسمها الحاجة أو يختارها الذوق الشخصي لا تلبث أن تتكاثر وتتوسع حتى تفوق طاقة النفس. فتقاوم هذه بلا جدوى تلك العراقيل، ولا تتوصل إلى التوفيق بين الحياة الروحية وهذا النشاط الخارجي المضطرب. فالأعمال بدلاً عن أن تدع روح الصلاة تتغلغل فيها تخنق بالحري هذه الروح أو ترهقها، ولا تلبث النفس أن تكل وتتعب وتعلن أنها لم تخلق لحياة الصلاة.

إلى جانب الانهماك وحمى العمل تأتي المعاكسات والمصاعب الملازمة للحياة التي اخترناها وللوظائف التي أسندت إلينا، وهكذا تستنفد الاهتمامات الخارجية نشاط النفس وتجفف القلب وتنفره نهائياً من الحياة الداخلية.

يا يسوع! إن هذا الخطر، بصورة خاصة يخيفني، فأنا أرى كثيرين يصطدمون بهذه العقبة فيسقطون أو يغرقون بطريقة يرثى لها. فهل تراك دعوتنا إلى الصحراء وكثرت لنا فيها المعجزات لتتركنا نموت فيها، وهل يمكن أن تتسبب الأعمال التي نقوم بها لإرضائك في هلاكنا؟ أيها الرب يسوع، لا تسمح بذلك بل علمنا كيف نعبر هذا البحر الأحمر الذي تهدد أمواجه بأن تغرقنا.

ماذا تخافين أيها النفوس المخلصة؟ اسمعي صوت المعلم فالخطر كبير ولا شك ولكن لا للقلوب الطيبة.

إن الأعمال ليست هدفاً بل وسيلة أعطيت للنفس لتبرهن لله عن محبتها. فيجب إذن أن نمارسها، ولكن باعتدال. فإذا خيرنا في أعمالنا، لا نأخذن إلا التي لا تلهينا، أو قلما تلهينا عن الله. يجب إذن استعمال بصيرتنا. لكننا نجد بين الأتقياء من لهم الحرية التامة في تنظيم وظائفهم وتحديد شواغلهم، ومن ذلك تتقادفهم أمواج أعم الهم المتزايدة دوماً فمن ترى يلزمهم بكل هذا؟ - ما من أحد. فيا للمتهورين المساكين! إن الهاوية ليست بعيدة عنهم، وهي تنتظرهم لتبتلعهم.

من تراه. يجهل أمثال تلك السقطات الجديرة بالثناء بل أمثال ذلك النوع من الجحود المتأني عن الإفراط في العمل؟ وعند هذا تختصر في بادئ الأمر الصلاة والتأمل وتمارين الحياة الروحية ومن ثم تلغى.

بيد أن الإنسان العاقل يتذكر دوماً أن هناك شيئاً واحداً ضرورياً، هو بذل الذات لله.

إن ملأنا العالم بسطوح معارفنا وأدهشنا الحكماء بعمق مباحثنا وإن أثرنا إعجاب الشعوب وتقديرهم بخدماتنا الجليلة. مدفوعين إلى كل هذا بعوامل بشرية. لا تؤدي لله مجداً بقدر ما تؤدي بمحبة بسيطة.

إن زهونا لعل ضلال: فوجدنا على هذه الأرض ليس ضرورياً، والله قادر لن يسوس الكون بدوننا. وستتابع الكواكب بعد موتنا سيرها في رحاب الفضاء. وتواصل الممالك تتبع مصيرها على هذه الأرض، فماذا نستطيع أن نغير في ذلك من تلقاء ذاتنا؟ إن مكانتنا ضئيلة على هذه لأرض وتأثيرنا محدود جداً، ما لم نكن لله جسداً وروحاً، ما لم نكن بين يديه أدوات لا حد لطواعيتها، ما لم نتخل عن أرائدنا الخاصة، ما لم نعمل إلا بوحى العناية الإلهية التي ترضى أن تستخدمنا لبلوغ مقاصدها.

حينئذ يكون عملنا هادئاً لأنه يكون معتدلاً، ومستمرًا لأنه حلو، وخصيباً لأنه إلهي.

لكن النفس قلما يمكنها اختيار أعمالها، فغالبًا ما تفرضها عليها الطاعة، كثيرة صعبة. والله يسمح بأن تفوق هذه الأعمال مقدرتها، وألا تستطيع، رغم رغبتها المخلصة، أن تتممها كلها في الأوان المناسب. ومع ذلك فالطاعة هي التي تريدها. فما أكثر النفوس المسكينة التي وجدت ذاتها مرتبكة أمام هذه المعضلة.

اجل! إن أعمالك تفرضها عليك الطاعة، والله يريد أن تتكبي بعناية على تميمها. هو يريد ألا تضيعي لحظة في شواغل لم يأمر بها. فمتى فعلت هذا قمت بواجبك.

فأعمل في إذن وتصرفي كأنه ليس لك عمل آخر لهذا النهار. أعملي بنشاط بلا كسل ولا إبطاء، ولكن لا تقلقي ذاتك بالرغبة في إنهائه. وعندما تهين أول عمل ارفعي عينيك برهة نحو المعلم الإلهي ثم ابدئي عملاً آخر. فإله يريد أن تبقى مشغولة ولا يريد أن تتممي ما يتجاوز الحد. فإن كان ثمة أشغال لا تستطيعين إتمامها مع ما تبذلين من عناية هادئة وانكباب رصين فاطمئني لأنك قد أتممت مشيئة الله إذ بذلت يومئذ كل ما في طاقتك، ويسوع راض عنك.

لكن في أعرف أن البشر قد لا يحكمون على هذا النحو، وأن بعض الرؤساء القليلي الحكمة يطلبون أد ياناً أكثر مما يطلب الله ويظهرون استياءهم. وهذا أصعب موقف تستطيع أن توجد فيه نفس ورعة تريد أن ترضى الذين أقيموا رؤساء عليها، وأن لا تلحق ضرراً بحياتها الروحية.

فعل في النفس أن تبذل كل ما في طاقتها من غير قلق أو اهتمام وإن كان عليها أن تتحمل لوماً أو تخضع لقرع بسبب عمل لم يكن عدم انتهائه ناتجاً عن تقصير منها، فهي تتقبل هذا الصليب الصغير كدليل محببة خاصة من يسوع لها. فإن السلام الداخلي والتسلط على الذات يساويان التضحية بتقدير البشر ومودتهم. وهكذا تستعيد النفس من ناحيتين إذ تحتفظ بسلامها الداخلي في غمرة الأشغال كما تحتفظ به إبان المهانة فتجدد في كلا الحالين بذل قلبها لله.

ومن النفس من يمكنه اختيار مشاغله، ومنها من يعيش تحت الطاعة، ومنها من تحدد أعمالهم ظروف معيشتهم أو حالتهم الاجتماعية. إن السعي وراء المعيشة اليومية والاهتمام بالعيال والقضايا المهمة والشواغل المتنوعة تستغرق أوقات أكثر أهل العالم وانتباههم. ومع ذلك تستطيع النفس الصالحة أن تنجو هنا أيضاً، من الخطر الذي يهدد حياتها الروحية.

علما بها أن تذكر أقوال يسوع: "لم تهتمون للغد، ولم تتساءلون بقلق: ماذا نأكل أو ماذا نشرب أو ماذا نلبس؟ فهذا كله تطلبه الأمم، أما أنتم فأبوكم السماوي عالم بما تحتاجون إليه. فلا تهتموا أبداً. بل انظروا إلى طيور السماء أنها لا تزرع ولا تحصد، وأبوكم السماوي يقوتها. اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره. وهذه كلها تزداد لكم²³. تلك هي حكمة الإنجيل، هذا هو صوت يسوع العذب يطمئن النفس المستسلمة له.

فلا تتسرع في أبدأ يا نفسي ولا تدعي الأعمال تشغلك مهما ظهرت لك ملحة هامة. اجتهدي في أن تكوني معتدلة في تصرفاتك كلها. ولتكن حركاتك وطريقتك في الكلام دليلاً على نفس تمتلك ذاتها، فمظهرك الخارجي يؤثر في داخلك فتصبحي دوماً هادئة وسيدة ذاتك.

²³ مت 6:25-34.

ولا و أعطى لك أن تسوسي مملكة فهذا الاهتمام ليس من شأنه أن يجعلك تفقد راحة قلبك لأن نفسك
أثم من ممالك الأرض كلها فأقيمي يسوع عليك سيداً ودعي له الاهتمام بمصالحك كلها ثم أحبيه قدر
استطاعتك. فلن يقال إن العروس شكت الجوع والعطش في قصر الملك عريسها.

الفصل الثالث ممارسة بذل الذات إبان المحن

المقالة الأولى بذل الذات والتجربة الداخلية

إن يسوع بستاني خبير، يسهر على الأشجار المثمرة التي غرسها أبوه ويشذبها كما يناسب. والنفس تعرف أنها موضوع اهتمامه الإلهي فتكتفي بأن تنمو فتكسوها الأوراق والأزهار والأثمار. إنها لا تتساهل متى يشذبها المعلم وينزع عنها الأغصان الميتة، بل تنتظر بصبر، لعلمها أن يسوع يسهر عليها وأنه يرسل إليها صد ليها العزير في الوقت المناسب. إنها لا تحدد شيئاً ولا تعين نوع العذاب الذي يرسله الرب إليها، فهذه جسارة وفضول، فهي تترك له ذلك لأن كل ما يفعله حسن.

إن الصليب الذي يرسد لها يسوع إلى النفوس ليقودها في طريق الكمال عديدة ومتنوعة. والنفس لا تعرف أيها قد خصص لها، فتقبلها كلها سلفاً لذلك عندما يتراءى لها يسوع حاملاً الصليب تسرع إلى مساعدتك في حمله.

كيف نصف بالتفصيل المحن التي ينعم بها يسوع على النفوس؟

فهو لا متناهي في تنوعها ومطابقة لحاجات كل نفس ومنقاة بحسب سمة الجمال الخاص التي يجب أن تزينها.

إن يسوع يسر خاصة بتنوع التجربة الداخلية. فهنا في داخل النفس لا يلاحظ عمله ولا يراقب ولا يعاكس إلا قليلاً، هنا يستطيع أن يبتر ما هو زائد في صميم القلب وينزع منه كل جذر غير نقي ويخرج منه كل عصاره غريبة.

وكثيراً ما يستخدم يسوع قلق الضمير والشكوك في خلوص النية وفي قيمة الأعمال الحسنة. فتتألم النفس ألماً لا حد له مؤكدة لله محبتها وأمانتها على الدوام.

وتبلغ المدونة أقصى درجة من الخدمة عندما تقتنع النفس بأنها عدوة الله، بأنها قد خانته وهجرته، وتحسب أن الله يتركها بدوره وأنه يحول عنها وجهه ويسلمها إلى أعدائها وإن غضبه يلاحقها.

ولكن ما الفائدة من الوصف "إن الله قد اختص هذا الأمر بذاته انه يريد أن يكون حراً وان يعمل وحده في داخل النفس. ولا يتمكن أحد من تفسير ما يحوطه الله بالأسرار، ولا من إدخال التعزية إلى حيث يريد الله أن يبعتها.

أما واجب النفس المستسلمة لله فهو أن تجدد بذل ذاتها في هذه الأوقات العصبية. والله يترك للنفس تلك القدرة السامية على أن تستلم له بفعل أرائتها. وهو يحرمها ولا شك عزاء فعلها ويخبئ عنها صلاحه لكنه يساعد دائماً على تنميته لأن في ذلك جوهر الحياة الروحية.

ومتى قامت النفس بهذا الفعل، لا يتبق عليها سوى أن تتألم وتنتظر وتصابر. إن كمالها كله قد تحقق في البرهة الحاضرة، والله يعمل فيها وينقيها ويرميها في البوتقة مستعملاً على التوالي، الحديد والنار. ويتطاير الشرر ولا شك تحت ضربات مطرقة الإلهية المتتابعة لكن الحديد يبدأ في اتخاذ شكل ما. ولا يلزم إلا قليلاً من الصدور حتى يتم الله تحفة جديدة. حينئذ تتوقف المحنة فجأة لأن الله، بعد أن يبرد غليل النفس وينعشها يعيد إليها قواها ويمزق الغشاء الذي كان يحجب بصرها.

إنك تصدق يا يسوع بطريقة عجيبة. فلم لا أفهم أنه ينبغي لي أن أتركك تتم في عملي في هذه الأوقات الأليمة، من غيار تشك ولا تدمر، وأن أجيب عند كل شدة جديدة وكل محنة أشد إيلاًماً، بفعل خضوع أكثر حياً؟

المقالة الثانية

يجب أن تعالی النفس النقية على المحنة عينها

إن المدببة الداخلة مفيدة، ويسوع يشرك فيها كثيراً من النفوس. لكنه لا ينعم بها عليها كلها، ولا لزوم أن يحصل ذلك. فليس من شيء لا يمكن الاستغناء عنه، حتى المحنة الداخلية ذاتها، وهناك نفوس تقلق لعدم وجود أسباب تقلقها وتضطرب من الهدوء الدائم الذي يسود فيها وتتألم من الفرح غير المنقطع الذي يغمر قلبها. أنها تكاد تشكو الله بأنه لا يحبها ولا يريد أن يرسل لها صليبه الحبيب.

أما القلب البسيط فلا تراوده مثل هذه المخاوف. وهو يحب الصليب ومتى ظهر له يتقبله كأخ عزيز ويضمه إلى صدره كباقة زهو بعث بها يسوع، لكنه يعرف أن يرتفع فوق الألم نفسه. فالآلم ليس هدفاً وإنما هو مجرد وسيلة محبوبة ولا ريب، والنفس لا تتعلق به أكثر من تعلقها بتسليبات هذا العالم وأفراحه، فدورها هي، أن تبقى حرة وتنطلق وتطير في أجواء المحبة. وهي لا تحتاج من أجل هذا إلا إلى أجنحة يعطيها إياها يسوع.

قلباً نقياً أخلق في، أيها المعلم الإلهي! فالقلب النقي لا يعرف قيوداً ولا يصادف عقبات البتة في ارتقائه نحو الله. لأنه ليس أسيراً لأية خليقة ولا هو تحت رحمة أي حادث، لا يقيد أي شوق ولا يأسره سوى الذرورع إلى أن يكون ليسوع. لقد حطم آخر رباط ما برح يقيد بعض النفوس ألا وهو التعلق بطرق الكمال، ومنها الألم.

ومن الآن فصاعداً لم يعد أي شيء يهم النفس ما دامت تحب يسوع، كل شيء يحسن في عينيها ما دامت تستسلم له أنها لا تطلب العذاب إلا إذا أوحى إليها معلمها بذلك فهي تعلم جيداً أن يسوع يحبها كثيراً، لذا لن يستثنى من العذاب إن كان ذلك ضرورياً لها. وهي تبتهل إليه فقط أن يعطيها القوة لتحمله وتشكر له عطيته.

دورها هي، أن تقنع بما تقدمه لها اللحظة الحاضرة من هين وصعب، من حلو ومر. وتظهر حياتها تافهة لها وللآخرين أيضاً. لكن هذه الحياة هي في الواقع أسمى ما يمكن على هذه الأرض. وكثيراً ما يجنبها يسوع الألم، فقد جعل الصليب لتحطيم القيود وتنقية القلب. وأما هي فما من قيود توثقها، وقلبها بسيط ومستقيم

لا تجد فيه ذار الألم ما تلتهمه، بل هو يتحول إلى جمرة من الحب الإلهي هادئة لذيذة. وتلج هذه الشعلة اللطيفة إلى صميم النفس وتنقيها يوماً بعد يوم من النقائص والهفوات الملازمة للطبيعة البشرية، وتذيبها على مهل كحرقه زكيه الرائحة.

المقالة الثالثة

يجب علي النفس المستلمة لله

أن تتوقع الاضطهاد

"إن جميع الذين يريدون أن يحيوا بالتقوى في المسيح يسوع يضطهدون"²⁴. ذلك ما يقوله القديس بولس بوحى الروح القدس. إن النفس الصالحة بالطبع تتصور في بادئ الأمر أن كل ما في الحياة يبتسم لها، فتستد لم لها بنية سليمة لما يعجبها ويستهوئها وتحسب أن الناس أجمعين مستقيمون وبسطاء مثلها. لكن هذا الوهم لا يدوم وأسفاه إلا قليلاً إذ لا تلبث أن تتبين أن المحبة التي تعامل بها والمردة التي تظهر لها ليست صافية، بل غالباً ما تكون إلا طلاء ومظهراً بل ستاراً تتخفى وراءه أنانية بشعة.

وكما عاشرت الناس اكتشفت في معظمهم برودة قلب وضيق مشاعر وصغر نفس. وهي تلاحظ هذه النقائص حتى في أولئك الذين يظهرون لها أتياء ومثقفين، كما أنها بعد طول الاختبارات الشخصية، لا تلبث أن تلاحظ هذه الأمور في ذاتها.

إنهم ما ليست في ذلك على ضلال لأن كل إنسان بطبيعته محدود من كل النواحي: محدود في ذكائه وفطنته، محدود في تفكيره. وأحكامه.

إن القلب البشري مفعوم بالأنانية، والفكر كذلك طافح بالطموح. وأسفاه إن صغر النفس وضيق النظر والتصلب في الرأي يشوه أفضل النفوس. ولا ريب أننا لا نكون في غالب الأحيان مسؤولين عن هذه العيوب، ولكن في الواقع حقيقية وكثيراً ما توجد الصعوبات في توطيد علاقات متواصلة بين الناس، حتى الروحانيين منهم.

ونحن نعرف أن النيات حسنة لدى الطرفين لكن أوجه النظر والأمزجة تختلف، الإرادة جيدة عند هؤلاء وأولئك ولكن تقدير الأمور يتنوع وكثيراً ما يتناقض.

ولو أن الصعوبة تنحصر في هذا التصادم البسيط أو في اختلاف المزاج وتباين الرأي لكانت محتملة إذ لا يلزم للتغلب عليها إلا فضيلة عادية. لكن هذا التباين الخفي في العواطف والأحكام ينفجر في تنافر سافر وذم صريح، وفي مقاومة أو اضطهاد مكشوف فترى النفس الحسنة النية أنها أصبحت مشتبهاً بها ومعارضة ومقاومة في أحسن مشاريعها وكذلك النفس البسيطة التي تعتقد أنها تتجه رأساً نحو الله بارتقاع القلب ترى ذاتها موضوع شبهة ومراقبة وانتقاد: إذ لا يحتمل الناس أن تغايرهم في السلوك وتبتعد عن مجتمعهم، فارضة على ذاتها ساعات خلوة وصلاة وممتعة عن تسليات وعلاقات تحسب ضرورية.

²⁴ 2 تيمو 4:12.

والنفس التي تحركها غير شديدة تلقى المقاومة في مقاصدها فيهملها أفضل أصدقائها وينتقدها أجدر القضاء ويخونها أصفى أصفائها: لأنهم يجدون تلك الغيرة عديمة التنظيم، وذلك النشاط مفرطاً، وهذا الاجتهاد والاهتمام جانحاً إلى الغلو. فينعتون ثباتها بالعناد وتواضعها بالرياء وصلابتها بالكبرياء ومثابرتها بالطموح المستمر.

ولا يك تفون بالأحكام والأقوال، بل إذا ثابرت النفس على سلوكها هذا، فإن بل الاضطهاد يبدأ تارة متستراً وطوراً سافراً وتستعمل كل الوسائل للنيل من النفس وشلها: كالسخرية والوشاية والافتراء أحياناً. ومن يعرف أكثر من النفس التي كانت ضحية ذلك، كم من الوسائل يستطيع الخبث البشري أن يخترع، وكم من الأسهم يستطيع إطلاقها، وكم من الفخاخ يستطيع نصبها، ليسئى إلى خصم مزعوم؟

لكن الاضطهاد ليس له دوماً هذا الطابع المتطرف بل غالباً ما يبقى خفيفاً، كما أن هناك نفوساً لا يسد تطيع النيل منها أما لأن وضعها الاجتماعي وأفضالها وحسن سلوكها تجرد العدو من سلاحه وتشله، وإما لأن دياتها الخفية المنعزلة تبعتها عن ضرباته. ومع ذلك يبقى أكيداً إن النفوس الروحانية بوجه عام يجب عليها أن تحسب، عاجلاً أو آجلاً، حساباً لمحنة الاضطهاد بشكل من الأشكال، وأن تكون مستعدة لمواجهتها بما يؤول لخيرها.

المقالة الرابعة

تصرف النفس إبان الاضطهاد

يجب أن لا تدهش النفس عندما تلاقى اضطهاداً حتى إذا أتاه أهل الخير، بل يجب أن تقتنع بأن هذا الشقاء هو نتيجة حتمية لضيق أفق الفكر البشرى وللأناية الكامنة في قلب الإنسان.

لوك ان لكل الناس أفكار واسعة وكبيرة لكنوا كلهم متسامحين، يحترمون آراء الغير وسلوكه ولا يتسرعون في إدانة نيات الآخرين وأعمالهم. لا أحد يتساهل مثل الله عن انحرافات الفكر ونقائص الطبع ونقل بات المزاج، بل عن الخطايا الأخلاقية لأن أحكام الله لا متناهية في اتساعها وهو يكتفي من خلائقه بالإرادة الحسنة.

أما الإنسان الذي هو محدود من كل وجه، فلا يتصرف على هذا النحو. أنه ينظر إلى المظاهر ويتبع تأثراته الشخصية في ما يحب ويكره. أنه يعترض على كل ما لا يرافقه أفكاره الشخصية وطريقته الخاصة في العمل ويود إصلاح الأمور على هواه.

يجب أن تقتنع النفس اقتناعاً راسخاً بهذه الحقيقة. أنها لن تجد أحداً تستطيع أن تعتمد عليه بلا تحفظ في موافقتها ومساندتها. إن أوفي الأصدقاء واجدر المرشدين بالاعتبار. وابلغ المسارين مودة. وأوفر الرؤساء عطفاً ورفقاً قد لا يلبون نداءنا في الوقت الذي نعتد فيه على نصيحتهم وسلطتهم. فما دامت النفس غير مقتنعة اقتناعاً متأسلاً بأن ليس لها أن تطلب عوناً من هذه الأرض، فهي عرضة في كل حين للصدمات وخيبة الأمل. فعلى الإنسان أن يختار بين اعتماده على الله واعتماده على الناس. إن طبيعة الإنسان ضعيفة في

تكويد نها بحيث لا يمكن الاعتماد عليها بثقة تامة، والله هو الذي شاء أن تكون الأمور على هذا النحو لكي لا يكون للنفس في آخر الأمر، سند سواه، ولا تستريح إلا فيه وحده.

فمتى بذل المرء ذاته نهائياً لله لا يعد يأبه لاعتبار البشر. وانتقادهم و عنفهم وسخريتهم لا تستطيع من بعد أن تزحزحه لأنه لم يتخل عن كل شيء في سبيل نيل استحسانهم أو كسب تقديرهم.

مما يستطيع العالم كله أن يؤذى النفس المستسلمة لله؟ فالنفس ليست بحاجة إلى العالم وإلى رضاه. وهي تعلم أن رأى الناس لا قيمة له أمام الله. العالم ليس قوياً إلا ضد من يخافه، ومن يجابه تهديداته وصرخاته يجده عاجزاً.

يجب إذن أن تردد النفس دائماً في أعماق قلبها: سيأتي زمن أجد فيه ذاتي وقد تخلى عنى جميع الناس وحرمت النصح والتشجيع وأصبحت موضوع شبهة من قبل رؤسائي ومرذولة من أتراي. ولكنى لن أخاف هذه الحال لأنني لست بحاجة إلا إلى يسوع.

ومتى تذكرت النفس ذلك وقت الصلاة تمتعت بحرية قلب كبيرة واستقلال عن كل تقدير بشري. فإذا جاء الاضطهاد والتعير وهجران الأصدقاء وعدم ثقة الرؤساء فالنفس لا تتأثر لأنها تجاوزت الأجراء التي تستطيع فيها الغيوم أن تلبد وجه سمائها. أنها تعيش في أجواء صافية تسطع فيها الشمس دائماً. فيقف التناقض عاجزاً ويصبح الاضطهاد أعزل أمام هذا الصفاء وهذا الهدوء الذي لا يشوش. وهذا الثبات في الطباع الذي لا يتقلب.

والله من وجهته لا يتريك النفس بلا عون. فكلما استسلمت له ازدادت حمايته لها، وكلما أهملت مصالحتها الخاصة وتبريرها الذاتي عظمت عنايته بها وبتقدمها الروحي وهو يستخدم لتحقيق مآربه أعداءها أنفسهم فيجعل من حسدهم وأحاديثهم الخبيثة و عنفهم وحيلهم أداة لإظهار براءة النفس المضطهدة وصوابية موقفها.

مما أعظم أسرارك يا رب! ما على النفس إلا أن تستسلم لله وتضع بين يديه كل همومها ومصالحها ولا تحتفظ في قلبها إلا بمحبته لتشعر السماء بأسرها أنها ملزمة تجاهها فتبادر إلى حمايتها.

إن فسد لوكي في المعاكسات والاضطهادات بسيط جداً يا يسوع! ليس على سوى أن ارتمى بين ذراعيك، أن اعهد إليك بحمايتي، أن احبك. السماء والأرض تزولان ولا تهلك النفس التي لجأت إليك.

هكذا مهمة النفس الروحانية، لا تتغير أبداً إذ ليس لها إبان الازدهار والنجاح والهناء والنور وموافقة البشر سوى فعل واحد هو بذل الذات التام ليسوع. كذلك ليس لها في غمرة الظلمات والشقاء والانتقادات والشدائد سوى شيء واحد تفعله: أن تبذل ذاتها لله بمحبة مضطربة ذلك هو كامل سرها ومنتهى حكمتها.

المقالة الخامسة

بذل الذات وقت المرض

إن يسوع ويمتحن النفوس وينقيها بطرق كثيرة مختلفة. فالمصاعب والاضطهادات والجفاف

والوساوس والأحزان الداخلية وخيبة الأمل وفقدان الثروة. هذه كلها رسائل بين يديه تعالى لقيادة النفوس إلى الكمال. قد يفهم بعض هذه النفوس محبة الله هذه فتدعه يشذبها حسب ما يشتهي، وقد يدesh البعض الآخر ويتذمر ويتعد من تأثير العمل الإلهي.

بهذا تقدر النفوس الباسلة عن النفوس العادية المبتذلة. فالمحنة واحدة والفرصة السانحة واحدة، والاسعداد الداخلي وحده يختلف. هناك نفوس تملك استعدادًا حسنًا لتكون لله فتستسلم بهدوء لعمله متقبلة ما يقدمه لها من حلو ومر. وهناك نفوس أخرى تتقصها هذه الطاعة المطلقة والشاملة فتبذل ذاتها بتحفظ وتراجع حالماً تعاكس المشيئة الإلهية رغائبها أو تكبح مزاجها.

بعضها يذبت ناظره في الله، العلة الأولى لكل شيء ومنظم الأحداث ومقدس النفوس الأسمى، وبعضها الآخر يعتبر الخلائق مسؤولة عن المصائب التي تلم بها.

لا يظهر الفرق بين النفوس الروحانية والنفوس لأخرى بأكثر جلاء مما يظهر في العجز والمرض. فالمرض محك القداسة. وبعض النفوس التي نحسبها راسخة في الفضيلة ونموذجاً يحتذى به في الدقة والنظام، كثيرًا ما تهمل وتتراخي إبان العجز والمرض، كما أن نفوساً قوية كالصخر كانت تظن ذات مبادئ لا تززع أصداً بحت يوم المرض فريسة أهوائها وأعبوبة مزاجها. كذلك رأينا نفوساً شجاعة صقلتها المحنة وقساها الاحتكاك بالمصاعب تتراخي فجأة وتلين كالطين يضغط الأمل الجسدي والانزعاجات الناجمة عنه.

مساكين هؤلاء المرضى! عجزهم مزدوج. انهم يبذون رغائب مدهشة ويطلبون أطباء وأدوية وعناية متواصلة وعلماً لا ينقطع. يتذمرون عندما ينقهم شيء أو عندما يمنع عنهم بحق، ويظهرون نفاذ صبرهم عندما تطول مدة المرض. أليست لهم ألوف الأعمال الهامة التي لا بد من إنجازها وألوف من المشاغل الملحة التي لا بد من قضائها؟ يقولون في أنفسهم: "هذا المرض مصادفة سيئة لو أتى في وقت آخر لقبلته بكل ترحاب. أما وقد شرعت في تطبيق هذا المشروع فإنه غير مناسب أبداً".

هذه النفوس لا ينفذ صدورها فحسب بل تقلق قائلة: "من يدري كيف ينتهي هذا المرض وأية مضاعفات قد تحدث وأية آثار قد يتركها في جسمي؟" إذ تقلقها هذه المخاوف تكاد لا تجد الرغبة والوقت الكافين للقيام بتمارينها الروحية فتعجز كلياً عين الاتحاد بالله باستسلامها استسلاماً تاماً.

أما النفس المستسلمة لإرادة الإلهية استسلاماً كلياً فتتقلع، عكس ذلك. لا تخاف المرض ولا تسعى لاتقائه بحبيطة مفرطة، بل تراعى قواعد الوقاية العادية وتتكل، في ما تبقى، على العناية الإلهية. ومتى أصابها المرض تقدم حياتها ذبيحة لله، طالبة إليه أن يتصرف بجسدها وبكل أعضائها لمجده الأعظم، ثم تبقى ساكنة وتأخذ العقاقير الموصى بها وتتبع تعليمات الأطباء وتخضع لما يطلبه المعتنون بها، ولا تطلب شيئاً فوق هذا إذ قد بلغت كمالهما في البرهة الحاضرة.

إن اسعدادها الداخلي الذي لا يتغير هو أكمل تسليم لإرادة الله، ليس فقط في ما يختص بالمرض نفسه بل في ما يختص بالظروف التي يحدث فيها المرض والنتائج التي يحدثها. فالله الذي سمح بمرضها يريد أيضاً أن تعطل اهتماماتها وتوقف أعمالها.

هكذا تجد النفس البسيطة سلوكها محددًا في كل الافتراضات الممكنة. تكتفي بان تكون كما يريد الله لها. همها الأوحى أن تحب الإله الذي استسلمت له ومهمة الله أن يدبر كل شيء.

المقالة السادسة بذل الذات عند الموت

ال نفس البسيطة تكتفي بمحبة يسوع وتتميم مشيئته الإلهية في البرهة الحاضرة. هكذا تنقضي حياتها رتيبة ولكنها سعيدة. فهي لا تشقى لأن الآلام تتحول عندها إلى أفراح، ولا تهتم بشيء لأن يسوع يفكر بكل شيء تحتاجه، ولا تخاف من شيء لأن كل شيء يأتيها عن يد يسوع الذي تحبه وحده.

هكذا تعيش النفس غائصة في الله في أغوار لا تدرك، تستطيع ريح العاصفة أن تعبر بسطحها، لكنها لا تستطيع تعكير قرارها الهادي الصافي.

ما أشهى مثل هذه الحياة، يا يسوع! فضلاً عن أنها مقدمة نهاية أسعد.

م نذ أن بذلت النفس ذاتها لله، لم تفكر قط أن تنصب خيمتها على ذلك الطريق المؤدي إلى الأبدية. كل ما تفعله هو أن تتوقف برهة على حافة الطريق لتسترجع أنفاسها وتقيس بنظرها المسافة التي قطعتها.

إن النفس المسيحية الكبيرة تتهيأ بعناية لهذا العمل الأخير. هي تجرب وتموت في كل برهة وفي كل لحظة تتذكر ذاتها، وتضحى لله بكيانها كله وبكل ما هو لديها وبكل ما يمكن أن تحصل عليه يوماً. وتضحى له بحياتها ليعود فيأخذها في الوقت الذي يختاره هو وفي الظروف التي يحددها هو. كل برهة من حياتها موت مقبول مسبقاً. عيشة المرء على هنا النحو موت بل انقطاع ومتى جاء الله أخيراً ليقول: "يجب أن تموتي"، فبم يمكن أن تجيبه النفس عروسه بغير ما يلي "أيها المعلم الصالح إنني لا أفعل شيئاً آخر منذ سنين؟"

أجل أي تها النفس المسلمة ليسوع، حياتك موت دائم وتضحية لا ننقطع بذلك كلها، وذبيحة دائمة. وهذه الذبيحة تنتهي على فراش موتك. والضحية وكذلك الكاهن المضحي هما أنت ذاتك، وقد اتحدت بيسوع رأسك. فارتضى بذبحك، إذ إنه لشرف لك أن تضحى تضحيته إلى تضحية يسوع. من موتك البطيء الشاق تتبع الحياة لك والآخرين. إنك تقندين العالم مع يسوع ومعه تكفرين عن خطايا البشر ومعه تقدسين النفوس وهكذا، سوف يأتي يوم. وبما كان قريباً، تموتين فيه.

مالك ترتعشين يا نفسي لهذه الفكرة؟ سيأتي يوم تقولون فيه: "سأكون بين ذراعيك بعد قليل يا يسوع لقد انتظرت طويلاً هذه البرهة اللذيذة وما هو إلا قليل من الوقت حتى ينهار الحائط الذي يفصلني عنك فأرتدى على قدميك وتضمني إلى قلبك الإلهي. لقد دام طويلاً زمن الغربة يا يسوع. فاضطرت النفس عروسك أن تنتظر طويلاً وأن تكابد كثيراً من المعاكسات وتتحمل كثيراً من السخریات ولكن ها هي قد افتقدت وكوفنت" - لا لم يكن عريسها نائماً: بل كان ساهراً عليهما يحافظ بغيرة على جمالها وبراءتها ونقاها. إن السماء في عيد القديسين يتهيأون ليدخلوا العروس إلى رحاب الملكوت السماوي.

أنها ما تترك هذه الدار الكئيبة غير أسفة فهي لم تحس فيها يوماً أنها في مكانها وطالما راودها الشوق إلى السماء، كثيراً ما طعنت قلبها الإهانات التي وجهت إلى يسوع في أرض الخطيئة هذه. كثيراً ما سمعت خياناتها الشخصية أفراحها.

لكن قد انتهت كل هذه ذمضى الشتاء، وانقضى زمن الثلوج والصقيع وها هو ذا الربيع مقبل
والعصافير شرعت في إرسال تغاريدها. ويسوع يقبل ليقول لعروسه الأمانة: "هلمي إلى من لبنان أيتها النفس
حبيبتى وتعالى بقربي فأكللك بالمجد".

وداعاً يا أرض الغربية فقد طالما بللتك دموعي! وداعاً يا أصدقائي المخلصين، يا أخوتي وأخواتي
الأدباء الذين سندوني بأمثالهم وشجعوني بأقوالهم. وداعاً يا جسدي الذي تنهار جدرانه أخيراً، أنني أغادركم
غير آسفة واذهب إلى النور، أذهب إلى المحبة، إلى الحياة، أذهب إلى يسوع.

أيتها العذراء المباركة، افتحي بسعة باب السماء عندما يقف ولدك على عتبة الأبدية. أيتها الأم
الحنون تقبليني حينئذٍ بحنو وقوديني إلى يسوع.

القسم الثالث

نتائج بذل الذات

الفصل الأول

حياة المحبة

المقالة الأولى

محبة متبادلة بين يسوع والنفس

متى استسلمت النفس أعطى يسوع ذاته بدوره. ذلك هو المبدأ الذي يسوس كل صداقة، وليس صديقاً مثل يسوع.

وعطاء المعلم الإلهي هذائق للطبيعة كعطاء النفس وأكثر منه أيضاً. إنه يفوق عادة أدراك الدواس، وليس للعقل إلا أن يستشفه فيما يكون الإيمان موقناً به، كما أن القلب النقي كثيراً ما يختبره في الصميم ويتمتع به تمتعاً فائق الوصف بفعل مبادرة رقيقة من يسوع غير أن هذا التمتع ليس في الواقع عطاء يسوع، ولا هو يدل على قدره، بل إنما هو أريج العطر السماوي الذي يحيط بقوى النفس ويتغلغل فيها.

وكما أن القلب يبذل ذاته بكامله، كذلك لا يترفع الله عن بذل ذاته بكامله، فيأتي أقانيم الثالوث الأقدس الثلاثة ويسكنون في النفس ويفيضون فيها عطية النعمة المقدسة التي ترفعها إلى مستوى الله. وهذه النعمة تجعلها ابنة بالتبني للأب، وأختاً ليسوع وعروساً للروح القدس، وتجعلها وارثة للسعادة ولملكوت الله.

إن مرة واحدة تبذل بها النفس ذاتها حقاً يكون مدعاة لسخاء عظيم من قبل الله. وكل جديد مهما كان سريعاً وضاعفاً يتبعه إفاضة جديدة للألوهية في النفس المؤمنة. وكلما اجتهدت هذه في بذل ذاتها ارتضى يسوع بأن تستحوذ عليه، وهو يدفع النفس من جهة ثانية إلى بذل ذاتها فيجرح قلبها عندما تتراخي، بسهم محبة يجعلها تنتفض، ويلقى عليها يسوع عندما تحس ببرودة حماسها، شرارة من لهبه الإلهي تجعلها تشتعل.

تبارك اسمك يا يسوع! كم من السبل تهيي لنا حتى نحتفظ بشعلة محبتنا. فتارة تحرك قلبنا وتملأه غبطة فننصدور أن هذا مكافأة لأمانتنا، ولكن غالباً ما يكون هذا وسيلة لابعاد خطر عنا أو لتدارك سقطة أو لتوحي إلينا النفور من الأشياء الأرضية.

وأدباً يأنس توقف عملك، فيظهر أن تيارك الإلهي يتوقف فجأة في عروقنا. فتحزن النفس وتقلق لأنها تظن أنك تبتعد عنها وتهرب منها لكنك لا تهرب بل تغور بزيادة في أعماق النفس وتدعوها إلى جمع الحواس والدخول في صميم كيائها، وتدخلها إلى الخدر لتصفي حبها وتنقيه من كل شائبة. وعندئذ تستطيع يا يسوع أن تزداد بذلاً لذاتك وترضى حاجتك إلى العطاء. فإنك إنما تريد قلباً فارغاً من ذاتها لتملأها محبة. إنك الذئب الذي لا ينضب والكنز الخفي الذي لا يثمن.

إن الله هو الصلاح وطبيعته تدفعه إلى أن يبذل ذاته. هو المحبة وقلبه يدفعه إلى إضرام النار فيها. لقد أتى ليلقى النار على الأرض فهل يريد غير اضطرارها؟

أي تها ال نفس المستسلمة! لن يكون بعد بينك وبين يسوع إلا شيء واحد هو بذل ذاتك. وهذا الحب يسلمك إليه ويسلمه إليك، فأنسى كل شيء آخر على الأرض، وأنهلي المحبة جرات طويلة واشبعي من إلهك فشفتك ملتصقتان بجانب الإلهي، تستقين منه الحياة وتتملين بمحبته.

أه ما أسعدك يا بنت الملك لا تلتفتي إلى الأرض فأنت نبيلة جدًا وغنية. إنك تجلسين على مائدة ملك الملوك وتتنزهين في جناته التي أضحت ملكاً لك.

المقالة الثانية

اللقاء العذب بين يسوع والنفس

في القربان المقدس

إن ال ثالث الأق دس يعطى ذاته للنفس المحبة ومعه تأتي كل الكنوز وتسكن فيها. لكن هذا العطاء رودي ي فوق الد واس جداً، والإنسان، مع الأسف! يعيش كثيراً من المحسوسات. وقد وجد يسوع وسيلة ليجذب هذه العقبة بل ليزداد بدلاً لذاته. وهذه الوسيلة الفائقة الوصف هي سر "الأفخارستيا". لا بد أن يكون لمعلمنا قلب جد حنون عندما فكر في الأفخارستيا. ما اعظم ما كان ارتعاشه عندما فكر في النسيان المخجل الذي قد يلحق به في بيوت القربان، وما اعظم ما كان انتفاضه فرحاً مسبقاً، لدى رؤيته النفوس المزمع أن يسعدها حبه الأفخارستي حتى انقضاء الدهور!

يا يسوع ما عسانا أن نكون بدونك، بدون حضورك الحقيقي؟ كم تكون حياتنا عندئذ كئيبة وفارغة! أين كنا نس تريح في ساعات تعبنا؟ أين كنا نجد التعزية في أوقات حزننا وإلى أين كنا نتجه بدون القربان المقدس، عندما تعذبنا الكابة السوداء وآلم الحنين إلى الوطن البعيد.

تبارك اسمك كل حين لأنك أعطيتنا ذاتك بهذه الطريقة التي تفوق الوصف، ونكاد نقول أيضاً بطريقة بشرية قريبة المنال لقلبنا. وهكذا فإنك تشترك معنا في كل أحزاننا وكل أفراحنا، وفي كل حين تتوق نفوسنا لتنسكب في قلبك. وأما أنت فتأتي كل صباح لتسكن فينا وتتجدد بصورة سرية بطبيعتنا مازجاً جسدك المقدس بطيننا وساكباً دمك الكريم في عروقنا. يا له من اتحاد عجيب مثمر، به قلبك ينفى قلبنا ويؤله.

أيها الرب الحاضر في القربان المقدس! ما أوفر الهناء الذي تفيضه في النفوس. وما أعظم المسرات التي تغدقها على بنى البشر لتكافئهم وتقويهم وتحفظهم. وما أكثر البطولات التي تثيرها بلا انقطاع فيهم!

أيها المسيح الحقيقي العائش في العالم، المعرض للسخرية والاضطهاد، بادر إلى اقتبال إلهك في القربان المقدس، فتتقوى وتحقق بالهزئين وتتحدى التنغيص والمعاكسات لتوسع مملكة مسيحك المحبوب.

وأنت أي تها ال راهبة الساهرة دوماً عند أسرة المرضى تعانين الجروح الكريهة والقروح البشعة والأمراض المنفرة، ألا اقتربي أولاً من يسوعك وتقبله بشوق مقدس، ومن ثم، وأصلي، قوية جذلة، حياتك الرائعة في التقاني حباً بمعلمك الذي تحملين في قلبك.

وأنت أيها الكاهن الغيور، الرسول الجسور، تذكر إبان أتعابك الرسولية بعيدًا عن الذين تحبهم وقد تركتهم، في عزلتك، بين اللامبالين وغير المؤمنين في هذا العالم، وسط المتاعب والصعوبات، تذكر أن يسوع، في كل صباح عند دعوتك له، ينزل على يديك المقدستين ليعطى ذاته بواسطتك للنفوس العطشى إليه... عند ذلك تتمنطق بالقوة والشجاعة ولا ينالك تعب في جهادك.

وأنت أيها النفس العزيزة أيًا كنت، مجهولة ومختفية عن عيون الناس، المنكبة على عمل شاق متعب، ارفعي عينيك إلى القربان المقدس وليكن ملجأك إبان الحزن، فيسوع حاضر هناك من أجلك. عندما انشأ هذا السر ميزتك عينه الإلهية بين سائر النفوس وتأثر قلبه نظر أحزانك. فتقدمي إليه الآن وأنت أمامه، غير هيابة، لأن من حقك أن تتالي قوة وتعزية ويسوع يعرفك ويحبك.

يا صديق نفوسنا الإلهي! إننا نعبدك باحترام ونحبك بحرارة، ننحني أمامك بإجلال ونعانقك برقة ودفء، نجد ثوابك عند قدميك بتواضع عند نظرنا عظمتك وحقارتنا ونلقى جبهتنا بثقة بين يديك لأنك صديق نفوسنا وأخونا الحبيب. لقد أعطيناك كل شيء يا يسوع وإننا مقابل ذلك نمتلكك.

المقالة الثالثة

الخدام الأمناء

في بذل الذات درجات وكذلك في عطاء يسوع. فبين القلوب المكرسة له والتي لا تحصى خدام أمناء وأصدقاء سريون وأبناء مستترين.

تلك مراحل ثلاث تقابل درجات الارتقاء إلى الله وتؤلف سلمًا في الألفة التي تستطيع أن ترتقي بها كل النفوس إلى يسوع الذي يدعوها. إنه يعطى ذاته للنفس لدى أول محاولة منها لتكون له وذلك كما يعطى السيد الصالح ذاته لخدام البيت الأمناء.

إن فكرة الخادم الأمين لمعلمه أخذة في الضعف في مجتعا وهي تكاد تنحصر في بعض العائلات العريقة في مسيحيتها.

الخدام الأمين ينفذ الأوامر المعطاة بدقة ومحبة. يحب معلمه ويفتخر بخدمته. همه الأساس ليس الأجرة لأنه يعرف أنه لن ينقصه شيء. وهو يحس بأنه عضو في الأسرة أهل البيت يحوطنه بمودة ممزوجة بالاحترام.

الخدام الأمين كنز ثمين وسيده يدرك ذلك ويعهد إليه بأعز مصالحه. هو يعرف أن أمواله في أمان بين يديه، بل يحتمل الموت عند الحاجة ليخلص معلمه. لذلك يوليه معلمه ثقة لا حد لها ويغدق عليه النعم والعطايا الجزيلة. وكلما شاخ الخادم في خدمته زادت محبة المعلم له وإكرامه إياه.

هذا هو نصيب كل إنسان تخلى عن ذاته ليكرس نفسه لمصالح يسوع المسيح. هذا المعلم الإلهي يدخله خدمته ويعهد إليه بحاجات بيته ويستودعه مصالح مجده والدفاع عن كنيسته ونشر الإنجيل. ويكلفه بمحاربة الضلال ونشر الحقيقة وتشهير الرذيلة وتشجيع الفضيلة.

أمثال هؤلاء الرجال يكونون في الصفوف الأولى من جيش المسيح وهم يعرفون من غيرتهم التي لا تعرف الكلل، وتجد ردهم، وأمانتهم وإخلاصهم. إنهم، كما يقول أحدهم، يخدمون الله بجسارة وعناد. هم لا يعرفون المساومات ولا المهادنة، والأعداء يعلمون عنهم كل هذا ولذلك يخشونهم.

هؤلاء هم العمال الرسوليون المتأهبون دومًا لحمل نير يسوع والعمل على توسيع ملكه. تلك هي النفوس الصالحة المكرسة لله والتي تقضي حياتها في تعزية المنكوبين والاعتناء بالمرضى ونشر الإيمان المسيحي. هذا هو الجيش العرمرم من الرجال والنساء الذين وقفوا حياتهم على أعمال البر. وجعلوا قواهم في خدمة القريب، وبذلوا أموالهم لمساعدة المساكين، واستخدموا مواهبهم للدفاع عن الحقيقة.

إن يسوع يعرفهم كلهم بأسمائهم، وهو فخور بخدماتهم ولهذا فهو يعاملهم كأبطال، ويدخر لهم الجوائز، يشجعهم دومًا للعمل. لكنهم يعرفون أنهم الخدام المحبوبون وإن المعلم يثق بهم. لذا فإنهم يبذلون بالحديد والنار، من أجله. لا بل إنهم يريقون آخر قطرة من دمهم من أجل مجد اسمه.

وإن ليسوع عددًا وفيرًا من الخدام الأمناء، وهم يشكلون السور الخارجي الذي يحمي مدينة الله.

المقالة الرابعة

الأصدقاء الأصفياء

إن الله يعطي ثقته للخدام الأمين، لكنه يعطي قلبه للصديق الخاص. والنفس التي أسلمت ذاتها مرة لله، تتوق إلى تجديد هذا العطاء. والشواغل والمعاكسات والآلام وأتفه حوادث الحياة اليومية تكون فرصة سانحة لتجديد بذل الذات لله. فالقلب، كالمادة القابلة للاحتراق، تكفي أقل شرارة لإشعاله.

فمتى توصلت النفس إلى درجة المحبة هذه، فإن يسوع يعاملها كصديقة. وليس من لذة تعادل لذة صداقة يسوع، هذه الصداقة التي يدرك معناها الدقيق بالقلب لا بالعقل.

إن الصديق يعطي محبته ويسلم ذاته كليًا إلى هذه المحبة. أما السيد فيعطي ثقته، ويكل بمصالحه إلى خادمه دون أن يطلع عليه على أسرار أو أن يقربه منه ليتحدث إليه بألفة وبساطة، فهذا الامتياز قد خصص للصديق الحبيب حسب قول يسوع²⁵: "لقد دعوتكم أصدقائي لأنني أطلعتكم على كل ما سمعته من أبي السماوي".

عجيب هذا التجاهل من يسوع لمقامه الإلهي، فإنه يعامل النفس معاملة النذل! أليس في هذا كل دلائل الصداقة الحقيقية؟ فإن الأصدقاء متساوون، أو يجب أن يصبحوا كذلك. ويسوع يضع نفسه حتى حقارتي، ويرفع حقارتي حتى ألوهيته. السيد البشري يبقى بينه وبين خادمه كرامة الرفعة والسلطان، أما بين يسوع والنفس صديقه فيبدو أنه ليس هناك من حاجز، بل فيض محبة واشتراك في الأفراح والأحزان وثقة واستسلام تامان.

²⁵ يو 15:15.

وبدنيك ون الخادم منهمكاً، بأمر سيده، كالمشاغل الخارجية، يتفرغ الصديق الجالس بالقرب من صديقه الإلهي للمناجاة الروحية. فبينما كانت مرتا منهمكة في خدمة يسوع وتلاميذه كانت مريم جالسة بهدوء عند قدمي المعلم. فيسوع قد ألهم الأخت الكبرى نشاطاً معتدلاً، وهو مسرور بخدماتها، لكن ناظره يستقران بدنيك على الأخت الصغرى. فالأولى أكثر نشاطاً، أما الثانية فأكثر محبة، واحدة تجعل نفسها خادمة نشيطة والأخرى تتوق لتكون صديقة يسوع. وعندما ينهي المعلم كلامه، تعود مريم إلى عملها، بنشاط لا يقل عن نشاط أختها الكبرى، لكن عملها يحظى بتقدير أوفر من يسوع، لأنها أكثر محبة.

أه! ما أسعد حال النفس صديقة يسوع، فهو يطلب منها الشيء الأكثر عذوبة: المحبة، أما من الخادم فيطلب الطاعة والأمانة أولاً، وأما من الصديق فيطلب القلب. ومتى أعطى القلب مرة، تصبح النفس ليسوع فتسعى لإرضائه في جميع رغباته. الخادم يحتفظ بحريته، وأما الصديق فيضحي بها لإرضاء صفيه وإعلاء مجده.

أيتها النفس العزيزة، اقتربي من يسوع فصلاحه لا حد له، وهو يحبك ويدعوك صديقه. إنك خاطئة، ولا شك، لكن محبتك كفيفة بأن تفتح لك أبواب صلاحه وسيغفر لك كثيراً إن استطعت أن تحبي كثيراً.

إن يسوع ينسى الخطايا وهو، على عكس البشر، لا يحفظ في أعماق قلبه أية مرارة. يا يسوع أني أومن بهذا، أومن به أيماناً ثابتاً ولن أشك في ذلك مطلقاً، ألم اشعر بفرط صلاحك المرة تلو المرة؟ ألم أسكب الدمع وأنا أقرا وأعيد قراءة مثل الابن الشاطر وإنجيل الراعي الصالح وتوبة المجذلية وحنانك المؤثر تجاهها؟ ما أعظم صلاحك يا يسوع!

إن قلبك تأثر لرؤية أرملة نائين المسكينة تتبع باكية جثمان ابنها الوحيد، فأحبيته. وفاض قلبك شفقة لرؤيتك حاجة الجموع التي هرعن إلى القفر لتسمع إليك، فأشبعها بأعجوبة. وتأثرت نفسك واضطربت لرؤية حزن مريثا ومريم فبكيت، يا يسوع، وأقمت أخاهما من الأموات. وتحننت على الجموع الهائمة كخراف لا راعي لها فكثرت من جولاتك الرسولية في فلسطين ناشراً العجايب وشاملاً بإحسانك كل من صادفت.

وماذا عساني أن أقول إن أنا عددت دلائل حنوك على خاصة؟ غير أنه لا بد لي من أن اصمت عن ذلك وهذا، أليس كذلك يا يسوع؟ لا! لا! إنك عندما تجذب القلب تقوده، مختلياً به، فتكشف له أسرارك بعيداً عن كل أذن غير كتومة.

يا يسوع، أذني أتبعك في خلوة قلبي واسمع صوتك يدعوني هناك وأنا أعرفه جيداً، فقد دعاني - وأأسفاه! مرات كثيرة دون جدوى، وكثيراً ما خنقه ضجيج أشواق الخيالية ومخاوفي الباطلة وشواغلي الطائشة. كنت على الباب يا يسوع تفرع وتنتظر... كل قلبك العطشان إلى المحبة يطلب نفسي وأنا أتوارى وأتهرب. أما الآن يا يسوع فأنا أخصك. لقد أعطيتك ذاتي وأنت تقبلتني بفرح، وفتحت لي قلبك وأربيتني فيه مكاني الذي ظل شاغراً مدة طويلة.

إندي أريد أن أنسيك بفرط محبتي ذلك الانتظار الطويل المؤسف، وأما صداقتنا فلن تعرف الأقول. فاشد ملني بعيدك الساهرة يا يسوع فأنا قد أسلمت أمري إليك وهب أبادلك المحبة وأعوضك عن المساوي الكثيرة التي اقترفتها تجاهك.

المقالة الخامسة

أبناء الله

هل تسمعين يا نفسي صوت الله أبيك؟ إنه يدعوك إلى ألفة اعظم. فأنت خادمته وصديقته، وهو يريد أن يجعل منك ابنته.

إن السيد يولي خادمه الأمين ثقته ويخص صديقه بمودته وأما ابنه فيشركه في حنانه الأبوي. وهذا الاتصال الجديد البالغ العمق من قبل الله هو ثمرة بذل الذات الذي أصبح عادة وطبيعة يرد عليها الله بألفة من نوع جديد، فيعامل النفس كابنته المحبوبة.

إن الصديق لا يذور صديقه إلا فترات متقطعة والنفس صديقة الله لا تستطيع أن تخاطبه بطريقة مس تمرة، فالشواغل والمهام والمتاعب تمنعها عن ذلك. وهي تسهر بعناية على الإكثار من تمارينها الداخلية وتأملاتها وفحص ضميرها وقراءاتها الروحية.

أما الابن، فهو لا يترك البيت الأبوي إذ أنه ليس صفيًا بل ابن البيت، وهو لا يقوم بزيارات لوالديه بل يمضي حياته بقربهما، فيعمل ويلهو في كنف والديه ورعايتهما.

والنفس ابنة الله تقوم بما يفرضه عليها الواجب، وفي ما تبقى فهي تلتصق بالله بحرية تامة وتقرأ في عيني أبيها حتى أقل الرغبات وتتممها حالاً. وعندما تتم هذا الواجب، غالباً ما يدعوا الله إلى أن تزداد قرباً منه.

والنفس الطيبة تستسلم لكل مظاهر حنان إلهها. فلا تفيض بأحاديث باطلة أو بسيل من الأقوال بل تريح نظرها بهدوء وحب في عيني أبيها، ففي هذه النظرة البسيطة كل قول.

على الصديق أن يسهو على مصالحه الشخصية وعلى مصالح أسرته، وأن يحسب وينظم نفقاته ويرتب ميزانيته. والنفس صديقة الله لا تتخلى عن الاهتمام بتقدمها في الحياة الروحية بل توجه كل جهودها إلى التقدم وإلى تقليل خطاياها إلى إدخال حبه الله في كل شؤون الحياة. فحياتها تمرين وصراع وعمل لا يتوقف.

أما ابن الله، فهو لا يحتقر هذا الجهد الشاق ولا يستخف به لكنه يعتبر أن هذا العمل ليس من اختصاصه. فهو ابن البيت، والأب والأم يعتنيان بشؤونه التي هي شؤونهما. إنه ينفذ بطيبة خاطر ما يأمره به أبوه. وإن أخطأ تداركت أمه الحبيبة كل شيء. ليس له أن يحطاط للمستقبل أو يهتم به، بل أن يرضى أباه، وأن يحب في كل لحظة وأن يظهر له ذلك بالحنان الذي لا حد له وبالطاعة العمياء.

إن حياة أبناء الله الحقيقيين تخفي على عيون الناس. فالله يخفي هذا الكنز عن الأنظار الغريبة. ثم إن العالم لا يفهم حياة تقضى كلها في خدمة الله ومحبه. انه يهزأ ببساطة الصديق الذي يحتقر خيرات هذه الدنيا. وكذلك النفوس المسيحية العادية لا تدرك أكثر من سواها سمو حياة مكرسة ليسوع، فتظهر لها النفس الهائمة بالله عاطلة عن العمل وغير نافعة للأرض. أنها تبحث عن النشاط والحركة والعظمة، أما الحياة التي كرسست لخدمة الله في الخفاء والعزلة، فتظهر لها بدون قيمة أو نفع للكنيسة.

والنفوس الصالحة والعزيزة على الله، التي لم تصل بعد إلى القمم التي يقطنها أبناء الله قد تعجب هي أيضاً! أحياناً لبساطة حياتها. أنها تظن أن القديسين يتميزون بخدمات ممتازة أودها للكنيسة، وبفضائل باهرة، ثم تلاحظ أن كل شيء فيها هو على عكس ذلك بسيط ويكاد يكون عادياً فتتساءل أين الفضيلة، أين القداسة؟ أنها لا ترى إلا أعمالاً عادية ووجوداً عادياً وشواغل مبتذلة، فليس هناك من تقشف أو صلوات طويلة لأن نفوس أبناء الله تكتفي بأن تسير سيرة العامة من سواد الناس. إنها بشوشة بالحقيقة، ومهذبة ومحبة، لكنها قلما ترى في المجتمع، كما أنها تكون أحياناً قليلة الاطلاع على الحوادث الجارية والمجاملات العالمية وأحياناً لا يكون لها تأثير في أترابها، ولا أهمية ولا شهوة.

يا إلهي، ما أكثر ما يخطئ الناس في تقدير استحقاق أبنائك! أن هذه الحياة البسيطة والخالية من الأبهة، المستسمة كلها لمحبتك هي الحياة المتسترة مع يسوع المسيح في الله، هي الحياة التي عاشتها الأم المعظمة، سلطانة القديسين، هي صورة طبق الأصل لحياة يسوع البسيطة والمجهولة.

صحيح إن هذه الحياة المنسية والمزدراة والمعذبة كانت عثرة لليهود وجهالة للأمم²⁶. وصحيح أيضاً أنها في عصرنا هذا هدف للسخرية والتحقير من قبل حكماء العالم، ولكن هل هذا يقلل من قداسها وسموها.

أيها النفس السعيدة، ابنة الله المستترة، ما أقل اهتمامك بأعمال أبناء هذا الدهر وسخريتهم وهزئهم! إنك تعرضين عن ذمهم وافتراءاتهم! إنهم لم يدخلوا يوماً القصر الذي تسكنينه فأعينهم لا تستطيع تحمل البهائم الذي يسطع به هذا المسكن السماوي وأذانهم لا تستطيع سماع اللغة الإلهية التي تسمعونها هناك. أنك تنتمين إلى عالم آخر غير عالمهم وتعيشين متسترة في الله، فأنت ابنته المصطفاة.

يا ابنة الملك! ارتفعي إلى شرف أصلك الإلهي ولا تقلقي البتة لما يتعلق بثروتك الروحية. بل تابعي حياتك البسيطة في حضن الله، وتممي مشيئاته واحبيه بغير حساب ولا تخافي البتة: فأنت غنية بحكم حَقِّك في الإرث السماوي.

²⁶ 1 كو 1:23.

الفصل الثاني

حياة نسيان الذات

المقالة الأولى

معني نسيان لله

ال نفس التي استند لمت لله لم تعد ملكاً لذاتها ولم يبق لها في نظرها وجود، لم تعد تحيا بذاتها، بل بالذي تكرست له، ولم تبق لها مصالح غير مصالح سيدها.

نسيان الذات هو الشريعة العظمى لكل حياة روحية ومعناه أن نقصى عن أعمالنا وأوجاعنا وصلواتنا كل حساب بشرى وكل أنانية ومحبة للذات.

نسيان الذات يعني أن يتقبل المرء ببساطة من يد الله كل عذاب وكل صعوبة دون تذمر أو اعتزاز ودون النظر إلى طبيعة الحدث ومدته كما لو كان ذلك يصيب شخصاً غريباً عنه. إنه يعني الاعتدال في طلب المسرات الشخصية والهرب مما هو محرم منها. فلا ينتقي مما تبقى إلا ما هيأته العناية الإلهية.

نسيان الذات يعني أن يقدر المرء نفسه على حقيقتها أي كسقط خاطئ، وألا يشغل ذاكرته وذاكرة الآخرين بشخصه ومزايه وأعماله، بل أن يتجنب إلقاء نظرة قلقية وطويلة إلى أوهانه. إنه يعني الاحتجاب عن أعيننا الخاصة بفعل الإرادة حتى لا نجد في ذاتنا وفي الآخرين سوى يسوع ومشيئته المقدسة.

لقد قال يسوع: من يريد أن يتبعني فليكفر بنفسه. ولذا فمن أراد أن يكون له نصيب من قيامة المسيح فليرض أولاً بأن يموت معه. ومن أراد أن ينهض من القبر مع يسوع ممجداً فليقبل عليه معه أولاً. ومن اشتهد أن يجد خلاص حياته فليهلكها.

إن نسيان الذات هو نكرانها والإماتة والتواضع والموت بالنسبة للعالم، نسيان الذات هو التجرد الشامل.

وما الذي يجرد النفس المستسلمة لله هكذا؟ إنه الحب والحب جبار غيور يطلب كل شيء ولا يرد شيئاً. ومتى هيمن على النفس كلها جعلها أفقر الخلائق. إن النفس العادية تستطيع استدراك المستقبل وتهيئة المناهج ورسم المشاريع. أنها تستطيع اختيار شواغلها ومسراتها وهي تستدعي تقدير الآخرين واعتبارهم إنها حرة في إبداء المودة والصداقة أو حجبهما.

أما التي استولى عليها الحب فقد أضاعت كل شيء فهي لا تسود عقلها ولا أرادتتها ولا مشاعرها ولا وقتها ولا صحتها، إذ لم يترك لها شيء. لقد نزع منها أشواقها وميولها ومؤهلاتها وكل ما هو ثروة للآخرين وفخر لهم. ذلك كله قد انتقل إلى خدمة سيدها. والنفس ترضى بهذا التعري فتتعمق برؤية ذاتها مسلوقة من ذاتها. وتخشى أن تسترجع ما هو لها وتستعطف يسوع حتى لا يرده لها أبداً.

علمنا يا يسوع أن ننسى ذواتنا.

المقالة الثانية

كيف تنسى النفس البسيطة

ذاتها في كل شيء

إن الـ نفس التي نسيت ذاتها تسكن أعماق الله. وحياتها، في بساطتها، مملأى بالعجائب، لكنها متوارية عن أنظار الإنسان العامي.

لا فرق بين النفس المستسلمة والنفس البسيطة. فالنفس المستسلمة بكاملها لله لا تملك سوى نظر واحد تثبتته في الله. إنها لا تملك سوى حركة واحدة توجهها في كل أعمالها نحو الله وتثبتها فيه، دون أن تعود فتنزلها نحو نواتها.

البساطة بعد بطبيعتها كل تفكير. فالنفس المستسلمة لله لا تفكر بذاتها ولا بأعمالها الصالحة ولا بنقاوة سيرتها ولا بالاستحقاقات التي تكسبها بلا انقطاع. أنها لا تتساءل عما يفكر بشأنها الآخرون. وهي لا تطلب لذاتها الرضى والحظوة حتى ولا عطف أي إنسان، لأنها لا تستطيع أن تدعى شيئاً ما دام أنها ليست بشيء.

الـ نفس المستسلمة ليسوع تحب معلمها الإلهي بحرارة وتظهر له هذه المحبة بمختلف الطرق. وتجد في كل حين طرقاً جديدة لترضى يسوع لأن المحبة خلاقة الأساليب. لكن هذه المحبة هي أيضاً بسيطة ولا تتكلم على ذاتها.

هذه الـ نفس تحب في الشدائد والتجارب والظلمات والأحزان، كما في أوقات النور والصفاء. وإذا وجه إليها يسوع فيض حنانه وغمرها بالفرح والمسرات نهى تتقبل عطايها بشكر واستسلام.

الـ نفس البسيطة لا تسأل يسوع أبداً عن دوافع تصرفه نحوها لأنها كالطين في يد الخزاف ترى الأشد كالذي يعطيها لها يسوع غريبة وغير مدركة ولكن هل يستطيع الإناء أن يقول لصانعه: لم صنعني على هذا الشكل؟ كذلك ترى النفس أن السبل التي يقودها فيها مرشدهما الإلهي لا يسبر غورها ولكن هل بإمكانها إساءة النصيح للحكمة الأزلية؟ أنها تتقدم بلا خوف تحت إرشاده دون أن تحرق قلقاً في مستقبل تجهله ودون أن تهتم بماض لا يحيا إلا في الله. إن الحاضر وحده يشغلها، ولكن من غير تعلق مفرط، لأنها تعرف أن كل عمل وكل اهتمام على هذه الأرض إنما جعل لتمضية الوقت. ولذلك لا تميز بين الأعمال المختلفة التي تقرضها عليها الطاعة: كل شيء حسن في عينها لأنه من الله يأتي.

وقد تكون الخدمة التي يطلبها الله منها مستحبة أحياناً ومطابقة لرغباتها، فتشكر الله على ذلك وتتقبل منه ببساطة هذا السرور من غير أن تتوقف عنده. ويكون العمل صعباً أحياناً ويعرضها لمفاجآت مكروهة وعلاقات متعبة وإذلال واضطهاد. إلا أن النفس التي نسيت ذاتها لا تعير أي انتباه ما يعذبها أو يذلها، فهي لا تعيش لذاتها بل لسيدها. أنها لا تأبه بإهانة توجه إليها أو باحتقار تتعرض له، وكيف السبيل إلى رؤية هذه الأمور وقد تناست وجودها، لذا تراها تواصل العمل الذي بدأته لمجد الله بكل هدوء، وإن رزحت تحت عبء المهمة ولو سحقتها ضربات الشتيمة والاضطهاد.

إن بساطة النفس وتجردها غالباً ما يثيران الدهشة في العالم حيث كل شيء رياء وأناانية. ويحاول الناس أحياناً استغلال هذه الاستقامة والسذاجة، فينصبون لها شركاً ويحاولون التغيرير بسلامة طويتها. لكن النفس البسيطة التي ليست في نظر ذاتها شيئاً، والتي نسيت ذاتها، لا تؤثر فيها المفاجأة لأن التعامل ليس معها سل مع الله، وليست هي التي يحاول الناس إلقاءها في الحيرة والارتباك بل الله نفسه.

المقالة الثالثة

النفس البسيطة تحب الصليب

إن النفس التي نسيت ذاتها بالكلية تقوم بكل أعمالها ببساطة بإرشاد نيتها السليمة دونما انكماش أو أناذية، إنها كورة دوماً لله على كل أعماله وتدبيره. وسيان عندها العافية لو المرض، اليسر أو العسر، الحياة أو الموت، تتقبل الأم برضى، بأي شكل يعرض لها، لأنه دوماً من المسيح يأتي.

إن الإنسان الذي ينقصه الإيمان الحي يكتشف دوماً يسوع وراء الحجب التي تحيط له، فقليلون من الذين عايشوا يسوع عرفوا انه المسيح الحقيقي. ولقد أثار دهشة الرسل والمجدلية بالمظاهر التي كان يترأى لهم فيها بعد موته وقيامته. أما الآن فهو لا يزال معنا في القربان المقدس بصورة سرية خفية عن العيون البشرية لكن النفوس اليقظة التي غمرتها المحبة تتعرف على للعلم من الصليب الذي يلازمه والذي خلص به العالم وأراد لكل أصدقائه أن يكون لهم منه نصيب.

أيها النفوس العزيزة، عندما يلم بك الأم قولي: " هوذا يسوع يمر"، وبادري إليه ولا تتركيه منحنيًا تحت ثقل حملة بل مدي ساعدك وقدمي كتفك لتشاطريه حمل صليب فإنما مر بك ليدعوك إلى مساعدته. لا تتعجبي من تنوع الصلبان التي ينعيم بها عليك وكثرتها. فالمعاكسات والآلام النفسية وأحزان القلب والاضطهادات والفشل والعسر المادي والضيق المعنوي والعاهات الجسدية. تلك كلها صور لصليب يسوع علينا أن نتقبلها، "من أراد أن يتبعني، فليكفر بنفسه وليحمل صليبه ويتبعني"²⁷.

ولكن إلى أي ن يقود المسيح النفس؟— إنه يقودها إلى الجلجلة إن كانت أمينة فتعلق على الصليب وتموت عليه فيقول لها يسوع: لقد زرعتك في الأرض يا حبة الحنطة الصغيرة لتموتي فيها وتحلي، ولكن متى مت تتبعك منك الحياة وتنبت ساق جديدة من قلبك وعلى هذا الساق ساق الحياة وتخصبين.

يا لسر الصليب! لا بد لنا من أن نموت لنحيا، فالإيمان يعلمني ذلك والعقل يوحيه إلى الطبيعة بأسرها تشهد به. فلكي اصبح شيئاً يجب أن ارتضى بأن اتلاشى وكأن أنسى ذاتي وبأن ألقى في الأرض وأفنى فيها.

آه! كم أود أن أكون حبة الحنطة هذه، المدفونة في أحشاء الأرض. إنني اشعر بأن يسوع يبقيني سجيناً على هذه لأرض فحياتي تنقضي وكأنها عقيمة. والقوى التي أعطانيها الله تضمحل وتقنى لا في خدمة القضاء العظيمة المقدسة، بل في بطالة قسرية تبدو بلا نهاية. هذا هو القبر، هذا هو الموت! ولكن ماذا

²⁷ مت 16: 24.

يضيرني، فإن يسوع يرعني بعينه الساهرة، ولسوف يبعث الحياة والخصب من قبري متى ارتضى ذلك، وعندما يكون دور جهادي على هذه الأرض قد تم.

المقالة الرابعة

كل شيء يدعو النفس إلي أن تنسى ذاتها

أيها الاله العزيزة، إنك مرتبطة بالهك في كل شيء حتى في أقل شؤون حياتك أهمية، وله عليك سلطان مطلق. فلا وجود لك إلا به ولا يمكنك أن تحيي إلا له وبحسب مشيئته. أليس من العدل أن يكون هو محور كل أعمالك ورجباتك وأفكارك وكل مالك وكل كيانك؟ أليس من العدل أن تنسى ذاتك وتمحي أمامه؟ إلا أن طبيعتنا ضعيفة يا يسوع وهي تحاول قلب النظام الذي وضعته وتسعى أن تحل محل الله وتجعل من ذاتها المحور الذي تدور حوله كل الخلائق، حتى الله نفسه.

عجيب أمر هذا القمر فهو يحاول أن يأخذ مكان الشمس وهذه الحبة من الرمل تتناول كي تكون جبلاً، ونقطة الماء تتشامخ لتملأ المحيط الكبير.

يا لفساد الفهم البشري وانحرافه! لقد جعل العقل البشري من ذاته إلهاً، وقلب عرش الله، وقدم ذاته للعبادة، وأعلن حقوقه تجاه الله وأملى عليه واجباته، وأعطى البشر الحرية بأن قيدهم بقيود الشيطان وجعل المساواة بأن أقام على نفسه طغاة ونشر الأخوي بعد أن أزال المحبة.

وما فعلته الكبرياء الجماعية تفعله كل يوم الكبرياء الفردية فينسى المرء أنه كائن من العدم قائم على التبعية، لا يحيا إلا بواسطة الكائن الأسمى وإلا من أجله فتراه يزهو بكرامته ويقدم نفسه سيدياً مستقلاً ويبسط سلطاناً على كل ما يحيط به ويرفض بتحدٍ وحق أن يؤدي واجب الخضوع الذي يطلبه الإله الأزلي مبدع الخليقة كلها.

"استمعي أيتها السماوات وأنصتي أيتها الأرض فإن الرب قد تكلم. عرف الثور قانيه والحمار معلف صاحبه لكن إسرائيل لم يعرف وشعبي لم يفهم²⁸. إني ربيت بنين ورفعتهم لكنهم تمردوا على²⁹".

لقد قلبت الخطيئة أوضاع الطبيعة البشرية المسكينة فأصبحت لا تحلم إلا بالاستقلال والعظمة وباللذة والغنى، بينما يهيب بها كل ما في الكون أن تتضع وتزهده في مقتنيات هذا العالم.

أما إشارات الموت الكثيرة التي أحاط الله بها الإنسان فلم تسكن إلا ليعلمه أن يفتش فيها عن الحياة الحقيقية.

كل الأصوات التي تطرق سمعه تدعوه إلى نسيان الذات ليصل إلى المجد الحقيقي. كل المسالك التي تطأها قدماه لا تقوده إلى النور إلا عبر الظلمات. كل ما حوله وما في داخله ينبئه أنه اخذ من العدم. فهو يرى جسده يتداعى تدريجياً ويسير في طريق القبر يوماً بعد يوم. ويرى أحلام السعادة التي هدهدت صباه تتلاشى

²⁸ أش 1: 3.

²⁹ أش 1: 2.

واحدًا فواحدًا كأطياف عابرة. لقد ظن أنه حر مكرم محبوب وذو سلطان. لكن الواقع الأليم يريه انه تحت رحمة الأعداء وأنه ألعوبة تلهو بها مخيلته وضحية جشع الآخرين وأنانيتهم، كل شيء يردد أمامه انه في غاية الصغر والحقارة، كل شيء يدعو به إلى أن ينسى ذاته ويتضع جدًا.

ما أعظم السعادة والحرية التي تتمتع بهما النفس لو عرفت أن تصغي إلى هذا الصوت وترجع بتواضع كل شيء إلى العدم الذي أخذت منه، واستطاعت أن تعيد نهائيًا النظام الذي طالما خرقتة بكبريائها وعنادها.

المقالة الخامسة

المحبة تسهل نسيان الذات

إن نسيان الذات يخيف أكثر النفوس، فهي لا تدرك كيف يمكن أن تحب الصليب وتتقبل الإذلال والاحتقار، لأنها تجهل سر المحبة المقدسة التي لا يمكن أن يوجد بدونها نسيان حقيقي للذات بل أنانية دنيئة وشهوة وكبرياء.

أما بالمحبة فيعرف الفكر، مهما كان ضالاً، أن يجد سبيله، والقلب، مهما كان سيسترجع نبله. المحبة المقدسة وحدها تنظم العواطف فتتدارك انحرافاتنا وتقضى عنها الغوضى. فتبدل الأنانية بالعطاء، والكبرياء بالتواضع، والسعي الشهواني وراء الذات والمجد الباطل بالإماتة ونكران الذات.

ومهما اندرد الإنسان وتمادى في الخطيئة يظل محتفظاً بأثر من جماله القديم. إنه طموح يسعى باندفاع وراء أمجاد باطلة وكنوز زائلة: ألم يخلق ليحرز كرامة لا حد لها ويملك خيرات لا تحصى؟ إنه يحب التمتع ويلادق لذاته بعناد شديد، أليس له الحق بلذات لا نهاية لها وسعادة لا يمازجها كدر؟ إنه يتهرب من اللمعة ويمقت الألم ويكره العمل: كم يخلق لراحة ولسعادة لا توصف؟ انه يخشى الخضوع ويمقت العبودية ويشور ضد القوة: ذلك لن دماً ملوكياً يجرى في عروقه، فهو ابن الله ومخلوق على صورته ومؤهل للملك.

أعداء المدببة إلى هذا الإنسان تحوله إلى بطل وقديس. فالمحبة هي المغناطيس الذي لا يقاوم الذي يجذب إليه كل قوى النفس المبعثرة، فإذا الطموح والرغبة في الكرامة يتحولان بفعلها القوى إلى غيرة مضطربة على مجد الله، والسعي وراء اللذة يتحول إلى تعطش شديد لإرضاء الرب يسوع.

يا لقوة المحبة! إنها كجيش اصطف للقتال.

إن قوة القائد تأتي من الحماسة التي يبثها في جنوده. فالجيش يتألف، في الأساس، من عناصر غير متجانسة لا يجمع بينها سوى اللباس والعزم والشوق إلى القتال. ومتى كان على رأسهم قائد محبوب قادر على تنظيمهم فهو يجعل منهم جيشاً مرهوباً، إذ يجمع حوله كل العناصر المتفرقة فتتبنى مخطط القائد عقول ألوف المحاربين وترضخ أرواحهم لأوامره حتى أنهم، إرضاء له، يقاتلون حتى الموت.

وكذا النفس التي تخوض معركة القداسة، عليها أن تستوحى هذا المثل. ففيها تجيش نزوات جامحة تشد كل قوى رهبة إن لم يسيطر عليها القلب انقلبت عليه. والسبيل إلى هذه السيطرة يكون بإعطائها قائداً محبوباً يخضعها له ويضبطها وينسقها وهذا القائد هو يسوع المسيح.

يا يسوع اجعل عرشك في قلبي لتأتى وتتحني أمامك كل قواي التي شغفت بك وارتض بان تتحول إلى طاقات للخير مرهوبة لدى الجحيم. اجل يا سيدي، فليس لي أن أهدم طبيعتي بل أن أتنازل لك عنها لتنفذ إليها محبتك وتنقيها. فالطريقة المثلى لكيما أنسى ذاتي هي أن احبك وان أشغل فكري كلياً بهذه المحبة. فاملاً يا رب جوانب نفسي ولا تدع لي فيها مكاناً شاغراً كيما أرجع إلى فلك قلبك الإلهي كما رجعت حمامة نوح بعد أن عجزت عن إيجاد مأوى لذاتها خارج الفلك.

المقالة السادسة

كلما زادت النفس في نسيان ذاتها، زاد اعتناء الله بها

لا يس على الأرض أعذب من محبة تامة النقاء متحررة من كل أنانية. غير أن هذه المحبة لا يمكن أن توجد إلا بين روحين لم تشوه الخطيئة صفاءهما ونقاوتهما. والنفس تمتلئ حزناً لدى تفكيرها في أن صداقة جميلة كهذه لا توجد على الأرض. ومع ذلك فالقلب البشرى يحلم بمثل هذه المحبة ويتوق إليها ولا تخور له عزيمة في السعي وراءها.

يا يسوع إن قلبى يفيض غبطة. فهذه الحبة التي طالما حلمنا بها هي حقيقة قائمة يعرفها قلبك وخبرتها ربوات من النفوس النقية.

ومما يزيد في بهجة هذه الصداقة أنها، في جوهرها محبة متبادلة، لأن الصديق لا يحيا في ذاته بل في صديقه، مفكراً فقط في ما يرضى الصديق. وتتكوّن هذه المحبة المجردة في النفس على درجات وينصرف اهتمام يسوع إلى تقويتها وتنقيتها من كل محبة للذات.

لكن هذه المحبة كاملة منذ ابتدائها من جهة يسوع فهو يعطى ذاته بكاملها وبلا تحفظ حالما تستسلم له النفس. ولا يكتفى، بهذا بل يواصل سهره عليها فيتم عناية محسوسة بجانب كل ضعيف وعاجز على هذه الأرض. وقد دود إلى كنيسته المقدسة بان تعالج مشاكل المجتمع فتداوى كل مرض، وتبدد كل جهل وتقوم كل اعوجاج.

وكل نفس تهتم يسوع بمفردها بقدر ما يهمه العالم كله مجتمعاً فهل يقال: ليس هناك من يسهر بجانب النفس الضعيفة التي لا سند لها؟ كلا أيها المعلم الصالح لن يكون ذلك، فإن حنوك لا يطبق هذا الافتراض.

ولكن ما عسانا أن نقول إذا كانت تلك النفس فقيرة عن اختيار ورضى وإذا دفعها جنون مقدس سام فتنازلت بين يديك عن كل ممتلكاتها واحتفظت فقط بشاغل محبتها لك، وماذا نقول على الأخص، يا يسوع، إذا قامت النفس بهذا التخلي الشامل عن كل عون مخلوق، بدعوة منك وانقياداً لرغبتك وامتنالاً لأمرك؟ انك يا يسوع عندما تعظم محبتك نحو خليقتك بهذا السخاء لا تلزم قلبها فقط بل شرفها أيضاً. فإنك إذ تأسرها بيهاء صليبك تنزع منها كل ما تملك، أفليس من العدل أن تصبح أنت وحدك لها كل شيء.

أيها النفس العزيزة، أيما كانت القمة التي تسكنينها، فأنت بعيدة عن أدراك حنان يسوع الذي يعطيك قلباً به إذ يأخذ قلبك. إنك بالرغم من صداقتك للمعلم الإلهي لا تزالين تعيشين وراء حجاب الأسرار تحيط بك ظلال الإيمان. ولسوف يكشف لك يسوع في ملكوته السماوي الذي لا انقضاء له ما كنت له على هذه الأرض

وما ستكونين له إلى الأبد. فإذا سمعت اليوم صوته طالباً منك أن تتسى ذاتك لتكوني له إلى الأبد فلا تترددي ولا تحاولي خرق حرمة السر، بل قولي ببساطة مع الأم الإلهية: فليكن لي حسب قولك.

المقالة السابعة

كلما زادت النفس في نسيان ذاتها زاد تفكير الله أيها

كلمة تقدمت الـ نفس في الكمال، زادت حياتها الروحية ببساطة وهي تتلخص في النهاية في هذا الكلمات التي قالها يسوع لإحدى خادماته "فكرى بي فأفكر بك". وهذا يعنى: أفكر بكرامتك، بصحتك، بخيراتك الذرية، أفكر بخلاصك، بكمالك، بقداستك. ويسوع الذي يعرف كل شيء لا ينسى شيئاً. فعندما يطلب من الـ نفس تضحية عظيمة مثل النسيان التام للذات فإنه يأخذ على نفسه تدارك كل المتاعب التي قد تنتج عنها بشرياً. فما على النفس إلا أن تطيع وان تمتنع عن تفحص المستقبل.

كانت أرمله "صرفه" في فقر مدقع يوم قابلت النبي ايليا. ولم يبق لديها سوى حفنة من الدقيق وقليل من الزيت تسد به الرمق مع ابنها ولا مفر من الموت جوعاً. ومع ذلك، عندما سألتها ذلك الغريب طعاماً أعطته آخر قوت عندها. كان ذلك جنوناً بعرف البشر، إلا أنه حكمة أمام الله، وكان مبعث العجيبة.

والنفس البسيطة حقاً تسلك على هذا النحو مع الله. فهي لا تفكر إلا بالواجبات التي ترضها عليها حالتها الحاضرة. أنها لا تعرف التحسب والمداورة والمخاتلة لأن الله يتعهد لها والمكر والكذب يعجزان عن الإضرار بها. وقد يظن المخادع أحياناً بأن النفس البسيطة واقعة حتماً في حباله ولكن سرعان ما يخيب ظنه إذ يفترض أمره بحادث غير منتظر أو بواسطة كلمة أو إشارة عفوية.

قال الرب لتلاميذه: عندما تمثلون أمام عظماء هذا العالم لا تهتموا بما ستقولونه دفاعاً عن أنفسكم. فالروح القدس نفسه يضع في أفواهكم ما يجب أن تقولوه. ولو أن الرسل قدروا عواقب أعمالهم الجريئة لما قاموا بالبشارة. لكنهم تركوا الروح القدس يقودهم حيث يشاء فأتوا بالبشارة على كمل وجه.

إن حكمة يسوع الإلهية لا تكتفي بالتفكير في أمور النفس البسيطة، كل تدارك أيضاً الأخطار التي يمكن أن تقع عرضاً لها بسبب جهلها: وعدم تبصرها. لا يوجد إنسان، مهما كان ذكياً وفطناً، لا يتعثر في خطاه. فهذا التعثر يكون موضوع أحزان وذل عند عامة البشر وربما تعرضوا بسببه للهزاء والشتمات. لكن مقاصد الله تشاء أن يكون هذا وسيلة لاتضاعهم وتقويم اعوجاجهم والحد من صلفهم.

وأما مع النفس البسيطة فتصرف الله يختلف عن هذا تماماً إذ يسمح ببعض التعثر - وفي حياة كل قديس أمثلة على ذلك - إلا أن هذا التعثر يبقى عالم المفعول بل كثيراً ما يكون للخير والتقدم.

والنفس لا تخسر مطلقاً إذ تدع الله يفكر لأجلها. فالقديس بطرس لما أدرك أن الشبح الذي كان يمشى على مياه بحيرة طبريا، فأخافه، كان يسوع، نسي نفسه قائلاً: "يا معلم إن كنت أنت هو فمرني أن أتى إليك

على المياه³⁰. إن بطرس بطبيعته العفوية لم يضع وقتاً في التفكير بل بادر ومشى فريق المياه، إلا أنه لما رأى فجأة الأم واج الطاغية تهدده لم يعد يفكر بالمعلم القدير بل فكر بنفسه وبضعفه فشك وبدأ يغرق. ولكن لحسن الحظ كان يسوع هناك ليتدارك كل خطر.

ومما يلفت النظر في الإنجيل المقدس أن يسوع يقف دائماً مدافعاً عن الضعفاء والمقتري عليهم. ولو كانوا من الخطاة وما أن يبدى الشخص نحوه بعض الثقة حتى يشعر بأنه ملزم بالدفاع عنه.

فإنه وقف ضد تلاميذه. إلى جانب الأمهات اللواتي احتشدن حوله مع أولادهن. ودافع تجاه الحاسدين عن المهتمين الجديدين زكا الذي صعد إلى الجميزة ليراه عند مروره، مع كون هذا العمل يعرضه للسخرية، حمى المرأة الزانية وأخجل رياء الذين شكوا وصرفها تائبة مؤمنة، ومانع في صرف الجموع التي تبعته إلى القفر رجاءة، ودافع عن رسله الذين أخذهم الجوع ففقطفوا السنابل في الحقول يوم السبت، وبسط حمايته على مريم المجدلية ودفع عنها شر مضطهدها لأنها أحببت كثيراً فاستحقت أن يغفر لها كثيراً.

كانت مريم من أعرق عائلات مجداً واشتهرت بفجورها لكنها، دون أن تخبر أحدًا بالتحول الذي حصل لها، جثت عند قدمي يسوع لتقدم تضاعاً حسبه البعض هوساً وتطرفاً. فقد دخلت بيتاً غريباً عنها أثارت فيه الاضطراب بين المدعوين وسببت خجلاً لرب البيت.

أيها المجدلية! إنك لم تهتمي بما أثرت وسببت من مشاكل عندما كان يسوع حاضراً يتوقع وقوعك على قدميه لأولى مرة! فقد تكفل المعلم بأن يجيب عنك.

ولم يتوان يسوع عن القيام بذلك، فدافع عن المجدلية تجاه يهوذا الذي اتهمها بالإسراف. أنه فعل أكثر من هذا فقد ارتضى أن يسجل تبريرها في الكتاب المقدس حتى يخير بما فعلته حينما يركز ببشارة الإنجيل.

وأذنت أيضاً، أيتها النفس الأمانة، استسلمي ليسوع وانسي ذاتك، فيفكر يسوع لأجلك. ولن يقال أبداً إن ثمة كائناً ضعيفاً أو محتاجاً لجأ إلى حنانه فرجع خائباً: "من يقبل إليّ لا أخرجه خارجاً"³¹.

³⁰ مت 28:14.

³¹ يو 37:6.

الفصل الثالث

حياة التفاني

المقالة الأولى

ما هو التفاني؟

بذل الذات لله يعني أن ننساها حتى لا نعود نفكر إلا بالذي استسلمنا له. وعندئذ يستولي الحب الإلهي على النفس وينصب فيها عرشه ويطرد منها الأفكار الباطلة واحدًا تلو الآخر. ومتى خضعت النفس لسلطانه، تنازلت عن منافعها الخاصة وعن تدبير شؤونها الشخصية وعن الاعتناء بمستقبلها، لتتكرس بكاملها لخدمة الله تاركة له عبء الاهتمام بكل شيء.

بذل الذات لله يعني التفاني في طاعته والتفرغ لخدمة الأهداف النبيلة والمقدسة، والتجند في جيش يسوع والعمل على توسيع ملكه بكل الوسائل الممكنة.

أن نحب، وأن ننسى ذاتنا، وأن نتفانى، ذلك هو بذل لله، ذلك هو الكمال.

إن أفضل معنى يمكن أن يعطى لحياة الإنسان الضعيف. الفاني، هو التفاني في سبيل الآخرين ونسيان ذاته كيما يزداد محبة ليسوع.

التفاني يعني تسليم كل حياتنا ليسوع، وبذل كل قوى جسدنا له، وكل حماسة قلبنا وكل عزم أردتنا وكل نتاج فكرنا.

التفاني يعني أن نسلم ليسوع كل سلطان على كياننا، سائلين إياه أن يتصرف به عندما يشاء وبحسب رضاه، لمجد اسمه مهما اقتضى ذلك من جهد أو ألم، من نشاط أو راحة، من تعب أو إماتة أو صوم.

التفاني يعني أن نكون تحت تصرف المعلم الإلهي إن دعانا: سواء في خلوة الدير أم في عزلة الصحراء، لنرفع إلى الله يدين متضرعين، في الساحات العامة المزدهمة لنذكر العالم الطائش كما تقتضيه الحياة من رصانة والتزام، أم في البوادي الساكنة لنحمل الإنجيل إلى النفوس المسكينة الجالسة في ظلال الموت، في المشغل البسيط أم في المعمل الصاخب أم في الكوخ الحجير لنكسب بعرق جبيننا كفاف يومنا من الخبز لأسرتنا وكيما نبني العالم بجهننا الذي لا يكل وحياتنا المستقيمة التي لا لوم فيها.

التفاني يعني بذل شبابنا وصحتنا ووقتنا ومالنا لإعانة البؤساء وتعليم الجاهل والاعتناء بالمرضى ومساعدة الفقراء وهداية الضالين وإغاثة اليتامى ومداواة الآلام البشرية التي لا تحصى.

التفاني يعني نشر سلطان الحق والخير والجمال في العالم، والعمل على إقامة علاقات محبة ووثام بين الأمم، والسعي لتقريب قلوب الشعوب في سبيل اتحادها كلها بالمسيح يسوع، وتعميم قيم العدالة والحق في المجتمع ومحاربة الضلال بأي شكل تقنع.

التقاني يعنى الاهتمام بأوضاع الطبقات الفقيرة الكادحة، والإسهام في تخفيف فقرهم المادي والفكري والخلقي، والاشد تراك في رفع مستوى الطبقة العاملة، والعمل على إخماد الأحقاد التي تفرق بين الفقراء والأغنياء، بين العامل ورب العمل.

التقاني يعنى، أخيراً، أن نكون في جهاد دائم، بحسب دعوة كل منا ووقته ووسائله، ضد الضلال والإثم لكيما نرفع راية الخير في كل بقعة من هذه الأرض ونجمع قلوب الناس برباط المحبة فيخضعوا كلهم لنير الحق ويسجدوا للمعلم الأوحد، ليسوع ملك الدهور.

ما أوسع مجال العمل وما أرفع هذا المثال للقلب الذي شغف بحب إلهه.

المقالة الثانية

الله يوجد النفي في تقانيها

إن تعدد أعمال التقاني يخبئ فخاً لكثير من النفوس السمحة. فهي معرضة لتوزيع تفكيرها ووقتها ونشاطها على ألوف الأعمال المختلفة. أما النفس البسيطة المستسلمة لمحبة يسوع فتستطيع تجنب هنا الفخ بسهولة.

إن لها في كل لحظة واجباً خاصاً تتممه بدقة وبلا عجلة أو تباطؤ، لأنها التزمت قضية واحدة لا بديل يعنى عنها وهي التقاني في سبيل الله. وإصرارها على حياة الأمانة المستمرة هذه، هو من النوع الهادئ الصبور لأنه أفضل طريقة تبرهن فيها لله عن محبتها. كل هذا في الخفاء والانسحاق حتى أنه لا يمكن لأحد أن يرى من مظاهرها أنها تخبئ تحت ستار هذه الدقة والثبات محبة عظيمة لإلهها.

فما اعظم خطأ المرء يا يسوع عندما يظن أن التقاني في سبيلك يتطلب أعمالاً باهرة ووظائف رفيعة ومناسبات خارقة ومؤهلات خاصة وبيئة ملائمة! إن الحياة المتواضعة المكرسة كلها للواجب الموضوع أمامنا هي الحياة الحقيقية، هو التقاني في أقوى معانيه واشدها واقعية.

أه ما أقل تبصر أولئك الذين يترفعون عن الوظائف المتواضعة والاهتمامات البسيطة والواجبات اليومية الحقيرة التي تمتلئ بها الحياة! إنهم يريدون العظمة والشهوة والنفوذ ويعجبون بالرجال المقتدرين الذين يثيرون حماسة الجموع ببلاغتهم ويلجون مجالس عظماء هنا العالم.

أما أنا أنما أيتها للعلم الصالح، فإني أعجب إعجاباً أعظم بتلك النفوس المجاهدة التي تقضى حياتها في عمل خفي متواضع ومهما صادفها من صعوبات وعقوق فهي لا تنني، ولا تنفك أمينة مخلصه وأن لم يكن حولها من ينظر إليها نظرة عطف واستحسان.

إن الواجبات اليومية، والأعمال التي تفرضها الظروف الحاضرة هي مدار نشاط النفس المكرسة لله. فإن كانت أمينة يسمر الله أحياناً بتوسيع مجال عملها ويوحى لها بأشغال أخرى أعظم أهمية وأوسع مدى.

لذا كان واجب النفس أن تنتظر بهدوء نداء الله. فإذا دعاها منذ مطلع النهار لتذهب وتعمل في كرمه، تكون مستعدة وتطيع بفرح. وإذا انتظر سيد الكرم حتى الساعة الحادية عشرة ليدعوها تكون أيضاً مسرورة،

فذلك دليل على أنه الله لم يكن بحاجة إلى خدماتها قبل هذا الوقت. وإن لم يدعها البتة فهذه أيضاً مشيئته والدلالة الأكيدة على أنه يريد أن يدع لها الوقت للتأمل. انه السيد وله وحده أن يحدد ما يلائم مجده.

إن روح الله يهب حيث يشاء وعلى المرء أن يكون سريع الاستجابة لهمساته حذراً من أن يضع أرائه مكان إرادة الله فيفرض خدماته عليه تعالى. كلنا يعرف أن القديس منصور دى بول استطاع أن يحقق مشاير كثيرة لتخفيف وطأة البؤس عن التعساء ولتعليم الأولاد وتبشير النفوس المهملة، وتقديم المؤمنين الروحى، ومع ذلك يقول القديس: إنني انتظر دوماً اقبل البدء بأى عمل، أن تخطو العناية الإلهية الخطوة الأولى. فليس هناك شيء أهم من هذا الخضوع التام للمشيئة الإلهية.

ومتى أعلن الله مشيئته بوضوح فإن النفس لا تعود تتردد بل تستسلم بفرح وتبدل ذاتها بلا حساب، كما أنها تضحي له، عند الحاجة، بمحبتها للعزلة وللحياة المتواضعة المستترة ولا تطمع في شيء: لا في العظمة ولا في الشهرة ولا في النفوذ، كما أنها لا تخشى شيئاً ما دام الله قد عبر عن رضاه.

أنها لا تقتدي بتلك النفوس الجبانة المتخوفة التي تتعلل بتواضع كاذب لتترك الفرصة التي يقدمها الله لعمل الخير تمر درن أن تستفيد منها. كما أنها لا تصر على رفض الوظائف التي تضعها أمامها طاعتها لله ولو كانت لها فيها كرامة ورفعة، بحجة أنها ليست بارعة فيها أو أنها تفضل الحياة المستترة المتواضعة. ولا ترفض، لذوفها من أن تفقد بساطتها وحدودها أن تتعامل مع أهل العالم وعظماء هذا الدهر وأقويائه وان تشتهر، عندما تتطلب الظروف ذلك، لأنها تعرف جيداً أن التراجع في هذه الحال يعنى خيانة قضية الله والسعي وراء الراحة الذاتية على حساب مصالح السيد له المجد.

المقالة الثالثة

لا محبة بدون تقان

لما أتى يسوع إلى هذا العالم لم يعلم شيئاً أحب من التقاني. وتد نبتت هذه الزهرة الصغيرة- إن صحت تسميتهما بهذا الاسم- على الجلجلة عند قدم الصليب وفي الأرض التي خصبها دم يسوع. ومنذ ذلك الحين لم تختف هذه الزهرة عن وجه الأرض لأن هناك أصدقاء يتعهدونها كعناية. إنهم يعرفون التربة التي تد بها والعصارة التي تتغذى بها. يعرفون أنها تهرب من مناخ الأنانية الجليدي وترتاح إلى مناطق المحبة الإلهية الحارة، فمكانها الحقيقي المفضل هو حيث تغمرها محبة يسوع.

وأنت أيها النفوس المتحمسة هل تعرفين هذه الزهرة، هل أعجبت بجمالها وتنشقت عطرها؟ أفلا تريد أن تدخل السرور إلى قلب يسوع فتقبلها في قلبك وتتعهد فيها بعنايتك؟

المحبة والتقاني زهرتان لساق واحدة وقد نقلهما يسوع من الحديقة السماوية إلى أرضنا القاحلة فنمتا فيها وتفرعتا وتكاثرتا ودخلتا حدائق العظماء وارض الفقراء الوضيعة ومنها تفرعت في كل مكان فضائل رائعة: من نكران ذات وتواضع وتضحية ووداعة وتسامح، وامتلاأت الأرض، المقفرة سابقاً، بالمستشفيات ومأوى العجزة وملاجئ الأطفال والمدارس والملاجئ العامة. وكثر فيها صانعو الخير.

ليس من تقان بلا محبة، كما أنه ليس من محبة بلا تقان. يا يسوع ما احسن أن تبعث محبتك فينا فنعرف التقاني الحق!

المقالة الرابعة الأنانية تقود العالم

كان البشر يا يسوع يحبونك محبة إلهية ولا تزال قلوب كثيرة نقية تحبك وتتقانى في سبيلك حتى الممات.

ومع ذلك فقلبي ينبض بالأسى لأن عدد هذه النفوس الملهية محبة يقل يوماً بعد يوم إذ أن الأنانية تعود إلى قيادة العالم ناشرة سمومها في المجتمع بأسره. أنها تنفذ الآن إلى الحياة العائلية وتحاول التسرب إلى الكنيسة نفسها. فهل يجد يسوع محبة في العالم متى عاد إلى هذه لأرضي؟ وإنك أينما اتجهت ترى سعيًا وراء الميزات وطعمًا وبذخًا مفرطًا واضطهادًا للضعفاء وازدراه بالتعساء ونفورًا من الفقراء.

أه يا زهرة التقاتي الصغيرة التي نقلها يسوع إلينا من السماء لتجتذب بنى البشر بعطرها! إنني أراك مزدراة ومفترى عليك ومضطهدة. فكيف تستطيعين بعد أن تعيشي في جو مشبع بالأنانية؟ اطلبي إلى البستاني الإلهي أن يردك إلى الجنائن السماوية لأن الشيطان سكن هنا والظلام يتكاثر حولنا والبرد يزداد قرصًا والوثنية الشنيعة تعود كشبح بشع مهددة بأن تلفنا ككفن عظيم.

ترأف بنا يا يسوع: "أقم معنا فإن المساء مقبل"³² وقد مال النهار، والليل القائم يفزعنا بأشباحه، فابق معنا.

لا تتظر أيها السيد الرحيم إلى عقوقنا المتكرر. بل انظر إلى هذا العدد الضئيل من النفوس المستقيمة التي هي لك بيننا وأشفق علينا. أنها قد بذلت لمحبتك بلا تحفظ، وهي تتبعك إلى أي مكان في الحياة وفي الممات. فهل تردلها أيها السيد؟ لا. يا يسوع! ولو لم تبق سوى نفس واحدة محبة فأنت لن تحجب عنا رحمتك.

أما أنا يارب فقد قررت منذ الآن لن استسلم تمامًا لمحبتك وأكون متقانيًا في طاعتك. وسأتيك بقلوب أخرى كثيرة أنقي وأكثر حبًا لك لنؤلف جوقًا يرفع إليك في كل حين الشكر والتسبيح.

المقالة الخامسة

التقاني بالصلاة

كل شيء يؤثر في النفس التي استسلمت لله ويسهم في جعل حياتها أكثر خصبًا، إن عملها أو صلاتها

³² لو 24: 29.

أو مآثها. كل شيء فيها يحمل الطابع الإلهي، وتفيض القداسة منها من كل جانب وتتسكب على النفوس التي تحيط بها.

إن صلاة بسطة من نفس نورية ورعة يستجاب لها أكثر من تضحيات آلاف النفوس العادية وابتهالاتهم ذلك "لأن طلبه البار تقدر كثيراً في فعلها"³³، وقال يسوع لإحدى القديسات: "أصدقاؤك هم أصدقاؤني، واحب من تحبين فاطلبي منى أن أنفعمهم".

ويسر الله أحياناً بأن يقدم لأمة بكاملها مساعدات خاصة، ويضع أمامها مجالات واسعة لترجع إليه تائبين. لذلك تلاحظ، حيناً بعد آخر، في هذا البلد أو ذاك أن الروح القدس يعمل بقوة وأن هناك تيارات اهتداء إلى الحقيقة لا تفسر وتغييرات عميقة الجذور وتحولات فجائية في الرأي العام نحو الكنيسة والدين، دون أن يظهر أي مبرر خارجي لأي منها. بل، على العكس، يكون كل شيء منافياً لتقديراتها. لكن يوجد في بعض زوايا العالم، نفوس نقية استسلمت بكاملها لمحبة يسوع تصلى لأجل الإنسانية جمعاء أو لأجل إحدى الأمم على وجه التخصيص.

يا لشقاء العالم لو أنه خلا من القديسين، إذ لا تعود هنا قوة قادرة على إيقاف ساعد العدل الإلهي من إذ زال العقوبة به ذا العالم الطائش. أما القلب البسيط الطاهر فهو وحده قادر بصلاته أن يوقف غضب الله ويستنزل مراحمه.

في القديم كاد الرب يبديد الشعب العبراني أكثر من عشرين مرة لو لم يكن موسى يتشفع فيه. وكان الله يقول لعبده: دعني اعمل ولا ترعجني، وسأجعل رئيساً لأمة أقوى من هذه لكن موسى كان يصلى إلى أن صارت الغلبة للرحمة.

وأذنت أيتها النفوس العزيزة المستسلمة بكاملها لمحبة يسوع، صلي لأجلنا نحن الخاطئة، صلي لأجل الأمم غير المؤمنة، صلي لأجل الشعوب المسيحية التي كفرت، صلي لأجل وحدة الكنيسة صلي لأجل العالم وألدي على الله بصلواتك فهو لا يرفض لك طلباً وليس من تأثير في شؤون البشرية يعادل تأثيرك. بهذا تخدمين قضية الخير الأوحد.

إن النفس أن تتمسك بإيثار كلى بخدمة الصلاة هذه وان تجعل منها رسالتها ودعوتها في هذه الحياة. فالواقع البشري يدل على أن الجميع لا يستطيعون أن يعطوا ويعلموا ويتركوا عيالهم ووطنهم للسعي وراء النفوس الضالة وهدايتها، لكن الجميع يستطيعون الصلاة. هناك من كرسوا حياتهم لرسالة التضرع هذه دون سواها ولجأوا إلى الأديرة ليستطيعوا القيام بذلك على أكمل وجه. وبما أن الجميع لا يستطيعون الاقتداء بطول هؤلاء، فإن بوسعهم إن أحبوا ذلك وأرادوه، أن يكرسوا حياتهم للصلاة لأجل الخطاة وان يقدموا لله، في سبيل ذلك، أعمالهم وأتعابهم ومشاكلهم، وهكذا تتحول حياتهم كلها إلى الصلاة وتتطق كل جوارحهم بالابتهاال.

وهناك أوقات يختارها الرب ليدعو النفس كي تزداد دنأ من قلبه ويسكب عليها فيض حنانه. إنها لحظات عذبة تعرفها كل نفس نقية. وكلما ازداد القلب بدلاً ونقاء سر الرب بأن يكثر تلك اللحظات ويطيئها. وعلى النفس أن تستفيد من هذه الأوقات السعيدة.

³³ يع 5: 16.

فيا أيتها النفس النقية أنسي ذاتك ومصالحك الخاصة عندما تكونين بالقرب من يسوع- لأنها في أمان في قلب المعلم- ولا تفكري إلا بالعالم، بالنفوس المسكينة التي تهلك فيه، بالخطايا العديدة التي ترتكب فيه، واسد ألي، الفادي الإلهي أن يرأف بشعبه. كوني لجوجة في صلاتك إلى أن يستجيب لك. كوني متفانية لأجل المسيحية الخاطئة فتخلصي، كهيوذيت، المدينة المقدسة من الأعداء الذين يحاصرونها.

المقالة السادسة

التفاني بالقدوة

يجب أن تتفاني إلى النفس في الصلاة، لأن للصلاة تأثيراً كبيراً على الله. كما يجب أن ينعكس هذا التفاني بالقدوة التي تقدمها للآخرين، لأن للقدوة تأثيراً كبيراً على القلب البشري.

لا شيء يستطيع أن يدفع النفوس إلى القداسة كما تدفعها قدرة حياة مثابرة على الفضيلة. فالصديق والرجل الأمين لواجباته هما عظة دائمة وحافز للقلوب النقية وتبكيك للمتهاون وتأنيب ودينونة للخاطئ.

إن هذه الحياة المكرسة لتتبع الواجب اليومي دون سواه، مهما كان خفياً أو متعباً، وهذه الأمانة في القيام بأعمال الفروض من غير تراخ، وهذا الأزدراء العجيب بكل منفعة خاصة وبكل وجهة نظر بشرية محضرة... كل هذه النواحي المحببة للفضيلة الحية البناءة الفاعلة فينا تجذب وتستهوئ أكثر الناس لا بمبالاة. وما يؤثر فيهم بالأكثر هو البشاشة الدائمة والاتزان في الطبع والوداعة في العمل والاستقامة التي تتحلل بها تلك النفوس التي أسلمت ذاتها لله.

وقد كان ليسوع تأثير عظيم على الذين رافقوه، وكان يأسر بصلاحه وتواضعه كل الذين عرفوه. لقد كان يسوع محسناً إلى الجميع على الدوام حتى لقد ظهرت رسالته وكأنها محصورة في عمل الخير: بيد أن هذا الإحسان الذي لا يكل كان يكتسب الخطاة، فيهدى زكا وبصلح المجذلية ويعيد الزانية والسامرية إلى سواء السبيل. كما انه كان يجذب إليه الأولاد والمرضى والأرامل والحزاني فيباركهم ويصرفهم معافين ومملوءين بالتعزية.

ما أحد ذك أيتها المحبة! فأنت تعلمين أشياء لا يستطيع أي قلب طيب أن يصمد أمامها. إنك وديعة مراعية ضد عطف الإنسان، مملوءة رقة وتهذيباً، تحترمين كل مخلص في رأيه وتتفنين إلى العقول المتمردة وتطردن منها كل تهور، وتلحين إلى القلوب المغلقة وتتقننها من الحقد والضغينة. كل شيء يخضع لسطوتك، حتى أن النفس التي تتملكينها تصبح مقربة إلى كل قلب، إذ لا يستطيع أحد أن يقاوم سلطان نفس لا تحيا إلا لتعمل الخير ولتخفف أثقال الآخرين وتجنبهم الملل والتعب.

نعم! من تراه يعارض نفسه مهما الوحيد أن تفرح الآخرين وان تتحمل الضيق والمكاره بلا تبجح وبكل بساطة كأنها أشياء تستحقها؟ من تراه لا يقبل أن يحب أمثال هذه النفوس، من لا يخضع لسلطان فضيلتها ومن لا يجد في إرضائها بدوره؟

وهكذا، كلما بذلت النفس ذاتها وتناستها، اجتهد الجميع بان يعاملوها بالمثل وان يفكروا بها. ليس الله وحده هو الذي يهتم بها، بل هناك أيضاً الخلائق التي تضحي النفس بذاتها لأجلهم. أنها، بعد أن تخلت عن كل

شيء، تجد كل شيء بوفرة أعظم وبصورة أثبت. وهذا هو التحقيق الأبدي لكلمة يسوع: "من أضع نفسه يدها"³⁴. وهو لا يجد نفسه فقط بل يخلص أيضاً نفس قريبه. ولأنه تقاني، لأنه بذل حياته لأجل أخوته فهو يرى ذرية كبيرة. إن ذكر الأثاني يمضى معه، أما ذكر الصديق الذي عاش للأخريين فيكون مباركاً.

المقالة السابعة

التقاني عن طريق الأمانة

في إتمام الواجبات

إن الوقت وموقف المتفرج إزاء الصراع القائم بين التقاني والأثانية غير مستطاع، لأن للنفس دوراً يجب أن تمثله، شاءت أم أبت، وقد قال يسوع: "من ليس معي فهو عليّ، ومن لا يجمع معي فهو يفرق"

إن من لا يجد الرب في صفوف المسيح فهو جندي في جيش الشيطان. ومن لا يتخل عن كل شيء ليتفرغ لعمل الخير يزد عدد الأثانيين وأصدقاء الشر. فكل نفس مسؤولة عن نتيجة المعركة فتسهم أما في عقد لواء النصر للخير وإما في رفع راية الشر. وفي هذه المعركة، ليس القادة هم الذين يقومون دوماً بأهم الأعمال، فقد يعود الدور للفصل، في أكثر الأحيان، إلى جنود بسطاء، إلى أشد النفوس معرفة بالمحبة ونسيان لله والتفكير في مصالح الآخرين. لتلك هي النفوس التي تحرز أعظم الانتصارات لأن النفس المستسلمة بكاملها ليسوع هي أعدي أعداء الجحيم.

فكم من رجوع إلى الله تم على يد نفس بسيطة تقوم بواجب المحبة بتواضع قرب أسرة المرضى في المستشفيات! وما أعظم التأثير الذي تحدثه في أسرتها فتاة تقية و زوجة مخلص، لو أم مهتمة بخير أولادها.

من لا يذكر في هذا المجال متأثراً قصة القديسة مونيكا التي هدت زوجها وحولت ابنها أغسطينوس الملحد الطائش إلى معلم للكنيسة وقديس. من لم يتأثر عند قراءة مذكرات سيدة معاصرة، هي اليزابيث ليسور E.leseur التي تقادت لتهدي إلى الإيمان أحد دعاة الإلحاد بعد أن تزوجها ليجرها إلى إلحاده؟ كم كان إخلاصها وتجردها عظيمين وكم ذرفت من الدموع! وكم بذلت خصوصاً من المحبة لتخلص نفس زوجها. لقد كانت تلك الزوجة المثالية على حق عندما قالت: "حسن أن يفكر الإنسان، وأحسن من ذلك أن يصلي، لكن المحبة هي كل شيء". أجل، المحبة هي كل شيء لأن فيها الصلاة والتفكير. المحبة هي كل شيء لأنها، كما رأينا، نسيان النبات والتقاني، وما من كائن يصمد أمام التقاني. فهو السلاح الوحيد المنتصر دائماً لأنه سلاح فائق للطبيعة ولا يحسن استعماله إلا القديسون.

ألا تنتش وقين يد ما نفسي لتعيشي حياة التقاني هذه؟ ألا ترين أنه ليس هناك أجمل وأقدس من أن يعمل الإنسان دوماً ما على أن ينسى ذاته وأن يكثر من الإحسان حوله وان يقابل الشر بالخير من غير أن يطلب اعترافاً بالجميل أو ينتظر تقديراً؟

³⁴ مت 10: 39.

إن بذل الذات بدون تحفظ ووضع كل إمكانيات المرء: قواه ووقته وقلبه وعقله تحت تصرف الأخرين لخدمتهم وتعتزيتهم وهدايتهم سواء السبيل، هو هدف لا أسمى ولا يرفع منه. هنا تظهر البطولة والتضحية في أقوى معانيهما، هنا، عندما تنوب الذات على مهل في خدمة المصلوب كما تنوب الشمعة على المذبح.

أرى الرؤساء مشغولين في حكم بلادهم، والسياسيين يحاولون تقرير مصير الأمم، أرى الشعوب تتنازع التفوق في العالم فينقض بعضها على بعض بجنون وحشي، أرى الناس يجوبون البر والبحر ليجمعوا الثروات، يفنون حياتهم في أعمال شاقة ليصلوا إلى مجد باطل. أما أنا يا يسوع فلا أريد إلا أن أحب وأتقاني، آمالي تتحصر في النمو بالمحبة حتى أتوصل إلى بذل ذاتي أكثر فأكثر. صحيح إن طموحي لا حد له، لكنه يزدري بمجد العالم، فالمملكة التي أريد أن أحكمها هي قلبي. أريد أن يكون تقواني كله إليك، ومطابقاً لرضاك. أنا لا أبتغي على هذه الأرض إلا أن أحب وأساهم في بسط مملكة المحبة.

المقال الثامنة

الله يملأ بالخصب حياة النفس المستسلمة له

التناقض الحقيقي هو أن يكون الإنسان بين يدي الله أداة طيعة فكلما أفرغت النفس ذاتها من كل غاية أنانية، كانت سهلة الاستخدام، ومرنة، ومن ثم جديرة بأن تهيب مجد الله.

إن الوجه الذي يبذلها البشر في سبيل مجد الله ليست عادة تلك التي تلفت النظر. فملكوت الله، مع كونه في هذا العالم، ليس من هذا العالم: إنه روعي ولذا فهو خفي أما ما نزن أننا نرى منه حولنا فهو مجرد ظواهر والأشياء خاص الذين يدتلون فيه، ظاهراً، مكانة مرموقة ويديرون شؤونه ويعضدون أو يحابون مصدالحه، ليسوا إلا ظلالاً تروح وتجيئ برهة على المسرح لتدع المكان لظلال أخرى. ولكن الستار لا يرفع أبداً ويستمر التمثيل دون أن يظهر الممثلون لنا. ومن هذا المسرح اللامحدود لا نرى، نحن المسجونين في أفقنا الضيق ولا تفاصيل ضئيلة. فكيف نتجاسر إذن، ونحن في هذا الوضع، أن نبحث في قيمة دور كل منا في هذه الحياة؟ فله وحده أن يعرف ذلك وهو الذي يوجه الجهد البشري كله إلى هدف واحد.

إننا نخطئ إذ نزن أن حياتنا لا فائدة منها وأن أعمالنا عقيمة لأن النجاح لم يكمل جهودنا. فهناك عظماء عديدون وقفوا ذاتهم لخدمة الخير إن في العالم أو في الدير، ومع ذلك باءت كل مشاريعهم ظاهرياً بالفشل. وبوسع كل واحد منا أن يذكر أسماء رجال دولة وسياسيين وأساقفة وكهنة قضوا كل حياتهم يحاربون بلا جدوى أفكاراً سائدة ونفوذاً مسيطرة، ومخططات ضمن لها النجاح مسبقاً. فكان نصيبهم في كل هذا هزيمة دائمة وهدماً كاملاً لآمالهم المشروعة.

ومع ذلك لم ينتصر أحد قط مثل هؤلاء الرجال الذين كانوا دائماً مغلوبين. ولم يحصل أحد علي نجاح حقيقي مثل هؤلاء الأبطال المعيرين دائماً، الذين طالما قهرهم العنف، ولم يخدم أحد قضية التمدن الحقيقي والإيمان مثل هؤلاء المغلوبين دائماً. إن تقانيمهم، العقيم في ظاهره، قد كان الثقل الذي أمال مع الزمن كفة الميزان إلى جهة العدالة المظلومة والحقيقة المسلوقة، والبراءة المضطهدة.

هكذا انتصرت تلك الشعوب التي سحقها طيلة قرون عتو ملوك طغاة. فإن الدموع والآلام والإصرار على تحدى النفي والاستشهاد، فاضت كلها كنهر طال ضبطه تحت الأرض، فاندك المعقل الذي كان يعتقد انه لا يتزعزع قد حطمت أساساته.

هك ذا عاشت أيضًا تلك الشعوب التي طالما تحملت جور جيرانها الأقياء، واضطهدت في وطنيتها وشعورها الديني، فسلخت وشردت وقضى عليها أن تثن عاجزة وتبكي مجدها التالد وحرقتها السلبية.

هك ذا تغل بت المسيحية على الاضطهاد الوثني وعلى قسوة السلطات المدنية وعلى رياء قسم من أبنائها أو هرطقتهم.

هك ذا سينتصر يوماً المسيحيون المضطهدون في اعز معتقداتهم ومشاعرهم. فالتضحيات التي بذلت والدموع التي سكبت، وأعمال التفاني التي تكاثرت في سبيل قضيتهم المقدسة، مع كونها عقيمة في الظاهر، تنتصرا بعد مرفعة، أمام عرش الله، وتحقق به كجيش لا يغلب، ماذا بأولئك الذين كان يعتقد أنه قد كتب لهم الهزيمة الدائمة، قد أحرزوا النصر على الكفر وبعثوا الحياة الروحية.

هذه الأمور التي تبهر بوضوحها كل متحوص للوقائع التاريخية العظيمة تتحقق سريعاً في حياة كل نفس، النفس التي تعتبر ذاتها غير نافعة وغير مؤهلة لجلال الأعمال، هي التي قد يختارها السيد لتضع أسس أعماله البهية. وتلك التي تتأوه سرراً لعدم نفع حياتها قد تصبح سبب خلاص لألوف الخطاة.

لا ريب أن هذه النفوس المسكينة لا يكون نصيبها دائماً أن تشاهد بفرح هذا النصر ولا هنا البعث. فقد تترك أرضنا هذه وهي تنوء بثقل اخفقاتها وأحلامها المتبددة، لكن الله ساهر. وهو سيكافئ تضحياتها ويولى هذا البذار في أوانه ثمراً يضاهاى مئات أضعافه.

وقد حفظ التاريخ بعضاً من هذه الحوادث العجيبة إذ أننا نعرف كيف أن عمالاً فقراء وبنات جاهلات وراهبات مجهولات ورجالاً لا كفاءة لهم ولا نفوذ ولا مال، قد أنشأوا أو وسعوا نطاق أعمال عظيمة تعود على الكنيسة والإنسانية بالخير الجزيل.

والى جانب هذه الوقائع القليلة التي أراد الله أن يطلعنا عليها، وقائع كثيرة بقي محتفظاً بسررها حتى تجاه النفس التي تكون قامت فأياها بدور البطولة.

كل نفس مستسلمة للعناية الإلهية تصبح مركز تأثير تنتشر أشعته وتمتد إلى ما لا حد له. ولذا فإن صلاة القلب النقي أو مثله أو عمله تكون إشعاع نعمة حوله يمتد تأثيره إلى عدد متزايد من النفوس ويتسع هذا التأثير كلما ابتعد عن المحرق الذي ينبعث منه.

أم ما علاقات النفوس في ما بينها وتفاعلها المتبادل، والتأثير الذي تمارسه كل واحدة على الأخرى لناحية الخير أو الشر، فهذا كله نكاد نجهله تماماً. لكننا نعرف نقط وعلى وجه العموم، أن الله يقدر الواحدة بالأخرى. وإنه يمدح النفوس الضعيفة أو الخاطئة نوراً وقوة بصلوات النفوس العزيزة عليها، غير أن هذه التأثيرات الخفية وهذا التضامن تبقى مغلفة بالظلام. إنه مما يبهج النفس أن يعرف المرء خفايا تاريخ حياة ولو بالنسبة لنفس واحدة وان يتبين مقدار طاعتها للمشيئة الإلهية وخصب بذل ذاتها لله، وان يكتشف ما لها من تأثير فائق للطبيعة في كل نفس تتصل بها، وان يتابع تطور هذا التأثير وتشعباته التي تكاد لا تحد!

ولكن ماذا ينفذ كل هذا؟ انه لا يؤول إلا إلى إثارة فضول باطل. فحسبي يا يسوع، أن اعرف إنني لك بكاملتي، بينما تهتم أنت بجعل حياتي خصبة، فتثمر لمجد اسمك القدوس.

الخاتمة

السيدة العذراء مثال حياة الاستسلام لله

إن سر قداسة جميع الأبرار كان في بذل ذواتهم لله من كل قلوبهم، وفي إتمام مشيئته والاستسلام لعنايته. أما النفس التي تقتش عن غير ذلك أو عما يجاوزه فتقع في الخطأ والضلال.

وقد سلك كل قديسى العهدين القديم والجديد هذه الطريق التي تؤدي وحدها إلي القداسة التي لا تعنى بالضرورة اجتراح المعجزات والعجائب الخارقة.

وليس بين الخلائق الطاهرة من يعادل في قداسته والدة الإله. ومع ذلك فقد كانت حياتها بسيطة جداً: لقد مرت بكل احوال النساء اللواتي من طبقتهن. فعاشت وترعرعت وتعلمت كالأولاد الذين من عمرها. كانت ربّة بيت وأماً تتمم واجبهاتها في كل من الحالين وذهبت إلى الهيكل للتطهير كالنساء العاديات وكانت تزور أورشليم كل سنة حسب عادة اليهود.

وفي ما عدا ذلك كانت تهتم بتدبير بيتها المتواضع. وكان يوسف، يساعده يسوع الشاب، بتدبير حاجات لأسرة. كانا يعملان سوية في دكان النجارة.

وبعد موت يوسف قام يسوع وحده بإعالة أمه. وليس في كل هذا ما يستلفت النظر أو يدعو إلى الإعجاب فلم يجد الإنجيلي ما يسجله، مدة عشرين سنة من حياة مريم، من أعجوبة أو عمل خارق أو حتى حادث بارز. فقال ببساطة: كان يسوع ينمو في السن والحكمة وكان خاضعاً لأبويه.

ولم يكن بين أقرب أقارب مريم ومعارفها من يعرف سر أمومتها الإلهية غير أسرة أليصابات. لم يكن إذن في تصرفها ما يدل على سامي مكانتها. ولقد اتخذها اليهود فيما بعد حجة ضد يسوع حينما قال إنه ابن الله. وكانوا يعتبرونها امرأة لا تتميز في شيء عن أفراد بيئتها الاجتماعية.

إننا لا نرى، قبل قيامة يسوع أن أخلص أصدقائه بما فيهم الرسل، كانوا يقدرون الكنز الذي يمتلكونه في شخص والدة الإله حق قدره. ولم تنفتح أعينهم إلا بعد حلول الروح القدس، فخصوا أرفع الخلائق وأحن الأمهات بخالص محبتهم النبوية. لقد رأى يسوع أن تكون حياة عذراء العذارى بسيطة وخفية لأنه أرادها مثلاً لحياتها. فلم يشأ بأن يجنب أمه النقية رؤيته مصلوباً ورضى بأن تقاسى الاضطهاد والألم المرير لأنه أراد أن يجعلها أم الأوجاع، وأكثر من شقي من الخلائق، حتى تكون لنا في أحزاننا وفي المصاعب الملازمة حياتنا على الأرض، مثال خضوع واستسلام.

الكلام الذي لفظته عند شعورها بأعظم فرح يمكن أن يخالج قلباً بشرياً، رددته فيما بعد في خضم قلقها الهائل: "ليكن لي بحسب قولك". ففي هذه الكلمات القليلة كل سرها، كل قداستها: أنها بذل ذاتها التام لله، أنها أوفى استسلام لعنايته، أنها ارق واعظم محبة نحو ابنها وإلهها.

فيما أم الله، علمينا البساطة، أهلينا أن نرجع ونصير أطفالاً نتعلم منك كل خضوع وطاعة واستسلام لله ليكون سر حياتنا كلها، كما كان شأنك: محبة يسوع وعمل مشيئته وتقبل كل شيء من يديه.

وأما ما تبقى فيضمناه لنا يسوع كشفاعتك، أخذاً على عاتقه همومنا وأثقالنا ومتداركاً كل حاجاتنا
ومنقذاً إيانا من كل المصاعب، وعلى الأخص: غافراً لنا، على الدوام، عقوبتنا وخطايانا.

نعم! إن كل حياتنا يجب أن تنحصر في شيء واحد: محبة الله والبوح له، بلا انقطاع، بهذه المحبة
إلى أن تتم لها السيطرة على قلوبنا سيطرة تامة.